يوسف عز الدين

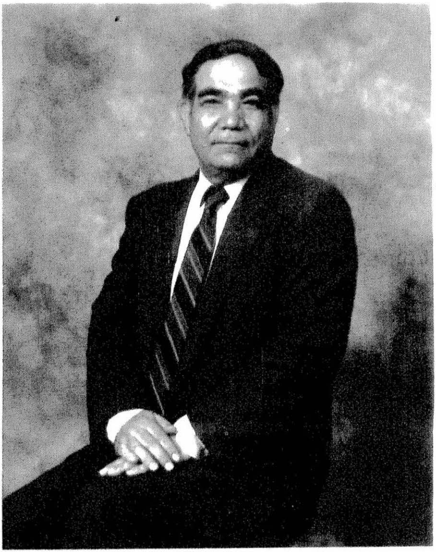
تراثنا والمعاصرة

دار الإبداع الحديث للنشر
١٩٨٧

تراثنا والمعاصرة

دكتور يوسف عز الدين

دار الإبداع الحديث للنشر
١٩٨٧



الدكتور يوسف عز الدين

الإهــــداء

الى الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الدباغ

الاستاذ في جامعة الملك عبد العزيز

الدكتور يوسف عز الدين

عضو المجمع العلمي العراقي	بغــداد
عضو مجمع اللغة العربية	دمشــق
عضو مجمع اللغة العربية	الأردن
عضو بيت الحكمة	تونس
عضو مجمع اللغة العربية	القاهرة
عضو مشرف رابطة الأدب الحديث	القاهرة
عضو الجمعية الملكية للأدب	لنــدن
عضو جمعية الأدب المقارن	باريس
عضو جمعية الأدب الحديث	أمــريكا
عضو المجمع العلمي الهندي	الهنــد
عميد كلية الآداب	جامعة الامارات

تراثنا فى الأدب والحياة

كثرت هذه الأيام المناقشات حول التراث والمعاصرة عن التقليد والحداثة ، واختلف المفكرون فى المعانى والأغراض، وطالت المقالات والكتب عن المضمون الفكرى والاختلاف بين الحداثة والتراث الناتج من تنوع مفهوم الثقافة والحضارة وحدودهما عند المفكرين العرب وتباين نظرتهم للتراث والمعاصرة .

الرأى الأول : ـ

فهناك من يرى ضرورة الاقتداء بكل ماجاء به السلف من أدب وفكر وفلسفة ومثل نقدية كان يسير بهديها والتى كانت تسيطر على مسيرة حضارة الفكر العربى المسلم وعلى ثقافته وفنه دون أن يدخل عليها مايلائم هذه الحياة الجديدة وتطورها تبعا للحاجات الانسانية المتغيرة فى عالم يعج بالجديد ، ويذهب بعضهم الى أكثر من ذلك بأن يتابع الأجزاء الصغيرة ويلتصق فى التقليد بمعالم وآثار وأسماء ذكرها الشاعر والأديب فى انتاجه ، فهو يركن الى الراحة الفكرية دون أن يبدع شيئا يساير هذه الحياة ، ويكتب دون ابداع من أثر خارجى .

أنا لا أنكر ضرورة وجود مثل عليا جمالية تؤثر فى المسيرة الحضارية للأمة ولابد للمبادىء العامة من سيطرتها لأنها مازالت حية فى حياة الأدب والفكر والفن والنقد عند المبدعين ، وان الأمة العربية من أصل واحد ولها وحدة

تاريخية لفتها خلال حياة الأدب والفكر الطويل ، لكن لابد من أن نساير هذا الجديد ونعنى به دون أن نضيع الروابط الفكرية والروحية التى توصلنا بالتراث الذى أنتجه المبدعون الأوائل من أمتنا العربية ـ، آخذين في حسابنا اختلاف حياتهم وحياتنا وفكرنا وفكرهم وعواطفنا وعواطفهم .

الرأى الثانى : ـ

أما الرأى الآخر فهو ترك كل أدب وفكر وفلسفة قديمة جانبا والانغماس فى الجديد والأخذ به دون وعى واختيار لأن الحضارة يجب أن نأخذها كلها أو نتركها كلها وبذلك يكون هناك انسلاخ تام عن المثل الأدبية والقيم الحضارية الانسانية التى كان يعيش فى ظلها المبدعون من أجدادنا ، وبذلك يريدون تغيرا شاملا فى المقاييس الفنية والجمالية والنقدية فى ظل الحضارة الجديدة التى غمرتنا .

ونسى هؤلاء أن الحضارات تؤثر بعضها فى بعض وأن الحياة الفكرية سلسلة طويلة الأمد ، فقد آثر الأشوريون فى اليونان وأثر اليونانيون فى أوربا وأثر العرب فى الغرب ثم جاء الغرب وبدأ يؤثر فى أدبه وفكره فى حياتنا بعد أن استجاب الشرق للسكون الثقافى والهدوء الفكرى والوقوف فى الابداع والخلق والتطور .

دارس التراث : ـ

ومن الضرورى لدارس التراث أن يكون شديد الاحساس مرهف النفس ليختار من قديمة مايلائم جديده وأن يجمع بين مميزات تراثنا وأصالته وبين مايحتاج الفكر المعاصر اليه فى هذه الأيام دون أن يغرق فى التراث ودون أن

يهمله حتى لاتضيع الشخصية الأدبية العربية وتنهار المقومات الحضارية الثابتة لأمتنا ؛ لأن التغير لابد من أن يكون في أجزاء من هذه الحضارة ، أما الثبات فيكون في المفاهيم العليا والتقاليد السامية — ومتى تطابقت حاجاتنا الحضارية المعاصرة مع مافي التراث من مميزات فلابد أن نتأثر بها وأن نؤكد عليها وأن نلتزم بها . ونعيد صياغتها والاستفادة منها عندما تكون أكثر صلة بالحياة وأشد فائدة للمجتمع ومثله .

لاشك بأن ثقافة الأديب والشاعر والفنان تختلف من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل باختلاف حاجات الانسان ومتطلبات الحياة ، فلا أقول بضرورة تقليد وصف امرىء القيس ومقدمات الأطلال في المعلقات أو أن أجمد على قول جرير والفرزدق والاخطل والبحتري والمتنبي لأن الاختلاف أشد وضوحا من البرهنة عليه لأن الأهداف العامة في اللغة والتعامل معها في جناسها وطباقها وتوريتها ومجازها تختلف باختلاف العصور ، فلم يجمد الأديب الأموي على مميزات الأدب الجاهلي ولم يقلد العباسي والأندلسي كل ماجاء في الشعر الجاهلي ، بعدما فرضت عليه الحياة التطور والتحديث والمعاصرة ، وأكدت الحداثة وجودها في الأندلسي وفي الشعر العباسي .

اختلاف الثقافة : ـ

ان الثقافة والمبادىء تختلف من أمة الى أمة ومن جيل الى جيل ، ولكن هذا الاختلاف الثقافي مع التطور الحضاري يعيش بيننا ويصلنا بالأدب العربي منذ أربعة عشر قرنا ومازالت حية تقاليده الفنية ، وتؤثر المبادىء العامة في اتجاهنا الفكري والأدبي والفني وتعيش اجزاء منها بيننا ،

لأن صلاتنا الحضارية ليست مبتورة كما يتصور من لم يتبع هذه المسيرة ٠

لاشك أن المفكرين أبدعوا وتطور الفكر فى حضارتنا وتراثنا وحياة أجدادنا وكانت فى بعض أشكالها خيرا من حياتنا المعاصرة ولكننا بالمقابلة نعيش مثلا وتطورا حضاريا خيرا من بعض جوانب حياتهم وقد حلت علينا مبادىء جديدة دون أن تبدل منا الكثير لأن المسيرة الحضارية لاتؤثر بسرعة انما تنساب بهدوء لخلق جيل جديد وفى ظروف مستحدثة جديدة ٠ والمسيرة الفنية والظرف الجديد يحتاج الى عمق فى التفكير حتى تقبله النفس وتسايره الرغبة الفكرية والاقناع الروحى ٠

مقارنة : ـ

الغريب أننا بدأنا حضارتنا الجديدة فى زمن محمد على باشا وبدأتها معنا اليابان وبرغم التطور الحضارى الغربى والتقنية المعقدة فى المصانع والمعامل وطراز حياة الغرب وأمريكا التى دخلت قسرا فى حياة اليابان الا أن اليابانيين فاقوا الغرب وأمريكا التى استعمرتهم وأرغمتهم على الخضوع بالقنبلتين الذريتين ٠

ان حياة الأسرة اليابانية الاجتماعية وأسلوب الأدب اليابانى وطريقة النقد برغم تأثرها وتعاونها الواسع مع الحضارة الجديدة بقيت واضحة المعالم والمزايا الأخلاقية ، وعاشت التقاليد العامة برغم ضخامة الصناعة ومجالات العلم الجديدة لأن هؤلاء تمسكوا بالمثل العامة وثبتوا على التقاليد الأصيلة وحافظوا على ثقافتهم الموروثة وتراثهم وأصالتهم فاصبح لليابانى صفات مميزة لم يضيعها سواء عاش فى جزره أم فى أمريكا أو فى الشرق ٠

من أين يبدأ التطور : ـ

ان التطور لابد أن يبدأ من التراث وأن ينساب فى حياتنا المعاصرة بمثله الأصيلة تاركين ما لا نستفيد منه فى حياتنا وأن يكون جزءا من ثقافة العربى الجديدة على أن يهضم حضارة الغرب ولا ينبهر بها وأن تكون الحضارة الجديدة لها مميزات الحديث وأصالة القديم بما فيه من قيم حضارية قديمة وجديدة ، والأمة القوية وحدها التى تضيف من تراثها على الجديد وتبعد من الجديد مالاتراه ضروريا لحياتها من مضامين الحضارة الغربية الجديدة وتكون أكثر قدرة على الوقوف أمام التيار الحديث حتى تدخله فى ابداعهنا وتستفيد منه فى خلق حضارة جديدة تسير فى تطور المجتمع شوطا كبيرا ٠

الابداع : ـ

ان الابداع لن يكون مؤثرا مالم يكن جزءا ضروريا فى حياة المفكر يرفع فيه المستوى الفكرى لأمته بعد أن تغيرت أنماط الحياة وسلوك البشر فى العالم العربى بما حباه الله من نعمة المال وتدفق الثروات على أرضه حتى حار وتاه فى استغلالها ٠

ان التحول الحضارى الذى يبهر بعض المفكرين لن يتم له التوفيق فى عالمنا العربى اذا لم نؤكد على أصالة التراث واستمرار جيده فى حياتنا الثقافية والفكرية والأدبية للحفاظ على الشخصية العربية بعمق هذا التراث بعمره الطويل الذى لا يدانيه تراث آخر فى انسانيته وشموله وسعة علاقاته الثقافية العالمية برغم تغير مفاهيم الأدب والفكر والحضارة فى حياتنا المعاصرة فهو جزء واضح فى حياتنا الفكرية ،

ومتى وظف التراث فى تطوير الحياة فسوف يكون علامة شخصيتها المميزة .

ومن أراد أن يستفيد جادا من التراث يجب أن يكون متجردا عن كل عصبية بعيدا عن الرأى المسبق ليمحص مابين يديه بعد أن أثقلت تراثنا القرون وعانى من قهر سياسى وتسلط فكرى واجتماعى واستعمارى وسيكون العمل منهكا حتى يجلى وجه التراث والوصول الى المنابع الثرة وأن يكون حرا في الانتقاء لابعاد ما ران على صدر التراث ، وماعلق به وأن يساير الأسلوب الواقعي بطريقة متوازنة ليخرج لنا مايلائم المعاصرة والانسانية وليثبت قدرة الأصالة والتراث قدرتهما على الابداع فى جميع مجالات الحضارة وأن تراثنا صالح فى تطوير عملية الابداع المعاصر والتطور الجديد .

ولعل الجيل السابق من أمثال شوقى وحافظ ولطفى السيد والكواكبى والأفغانى وعبد الله نديم والرصافي والزهاوى وفهمى المدرس وأبى الثناء والبارودى والألوسى والكاظمى واليعقوبى والشبيبى هم الرواد الذين أخذوا من التراث واستفادوا من حضارة الغرب نماذج قوية أظهرت قوة تراثنا وأصالته .

واخيرا :ـ

هذه مقالات متعددة أو مساهمات متنوعة القى أكثرها فى محافل العلم والأدب والفكر تندرج تحت التراث والمعاصرة رأيت طبعها مساهمة منى فى المناقشات الكثيرة لأكسب شرف الاسهام فى موضوع حيوى يمر فى حياتنا المعاصرة ، وسوف تعود على بالفائدة متى وجدت طريقها فى النقد والتصويب

واصلاح الآراء التى جئت بها .. اضافة الى أنها تلقى الضوء على تراثنا العـربى وتبرهن على أنه مازال قادرا على تطوير حياتنا وأنه جزء كبير من ابداع آمتنا التى يسودها التمزق وانفصام الشخصية والازدواجية الحضـارية مابين القـديم والجديد عسى أن أعيد بعض الثقة فى نفوس انبهرت بالغرب وأدارت ظهرها نحو تراثنا الأصيل .

يوسف عز الدين

• الفصل الأول

التراث العربي والمعاصرة

التراث العربي والمعاصرة

ان تحقيق المخطوطات واعادة نشرها بأسلوب علمي ، وكثرة ماطبع منها ، سهل الاستفادة منها ، وقرأها الرواد الأوائل فتأثروا بها في أساليبهم الشعرية ، وكانت من بواعث النهضة الجديدة عندما غير الشعراء والكتاب أسلوبهم القديم الذي يعنى بالجناس اللفظي والتورية والجناس المقلوب والمرصعات والمجاز والابتعاد عن النظم في ضروب لفظية غريبة ، معتمدا على الايغال في اختيار الكلمة وانتقاء العبارة والتباهي ببراعة الاستهلال والجناس المركب والمطلق والملفق والمذيل واللاصق والتام والمصحف والمحرف ، والهزل الذي يراد به الجد ، والمقابلة والالتفات والاستدراك والتوشيح والتفويض والمناقضة وغير ذلك ، مما كثرت فيه المصطلحات وندرت فيه المعاني ، لأن الأدب والفكر بصورة عامة اهتما باللفظ أسلوبا والكلمة هدفا .

ان الاطلاع على هذا الجديد في أساليب التراث أدخل رواء حديثا وماء صافيا عذبا ، حلا فيه الأسلوب وأشرق فيه النظم ، عندما تأثر المعاصر بأساليب الشعر الجاهلي والأموي والعباسي ودرس النابغة وجريرا والمتنبي وأبا فراس . وبدأت الحياة تمور بالجديد من أحداث متنوعة وظواهر متعددة ، دعت المفكر مضطرا الى العناية بالمعنى ليعبر عن هذه المتغيرات

القي في مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في الدورة الثانية والخمسين يوم الثلاثاء ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٦ للموافق ١١ مارس (آذار) ١٩٨٦ .

الحضارية الجديدة ، وليواكب التجديد الذى لم تكن حياته الهادئة توحى به ٠

وجاء الغرب فدفع الشرقى والعربى والمسلم الى رؤية جديدة ومنظور حديث ، عندما قارن المفكر حياته وحاله وأدبه وعلمه بما عند الغرب ، وقارن ضعفه وهزال فكره الأدبى وضعف قابليــة هــذا الأدب على القــدرة فى وصف المستجدات الحضارية ، فاهتزت مثله وتغيرت نظرته الى أدبه وانقسم المفكرون على أنفسهم ، برغم وحدة الشرق والعرب والاســلام فى الوقوف أمام هــذا التيار العــارم حتى قال الشاعر :

ان العروبة لفظ ان نطقت بــه

فالشرق معناه والاسلام والضاد

ان التجديد والبعث والنهضة على اختلاف الرؤية الفكرية والتاريخية ، استمد جذوره من تراث العرب القديم بمختلف عصوره الزاهية ، بما فيــه من غزارة علمية وفكر عميق وفلسفة ناضــجة ونظــريات فى الاجتماع والفلك والطب وأسس نظرية تطبيقية فى مختلف العلوم والفنون ٠٠ فأطلق اسم التجديد على احياء مسارب الفكر والأدب والشعر ٠

بينما كانت مسارب الفكر الغربى وتجــديده الأدبى والفلسفى قائمة على أدب أمة أخــرى ، وعلى تراث شــعوب مجاورة ، فقد حدثت النهضة الأدبية فى اوربا بعد سقوط بيزنطة وهجرة العلماء الى الغرب ومعهم المخطوطات التى قلدها شعراؤهم تقليدا بعث الجديد فى نشر الكلاسيكية التى أفضت الى تقليد أعمى أجوف ٠

أولا : القديم والجديد

الجديد والقديم والتراث والمعاصرة والمحافظة والتجديد، سمة كل عصر ، وطبيعة كل تطور فى الحيـاة ، ومظهر كل تبدل فى معايير الحضارات التى عمت وجه الأرض .

ومعارك الفكر ومتناقضات المجتمعات الكثيرة ، لازمة لكل مجتمع نام يتفتح نحو التجديد ويعى تأخر حاضره ، فى كل أمة ، باختـلاف شـعوبها وتنوع أفـرادها ، ولايمكن الاستفادة من الجديد والتطور الا اذا استوعب الفكر الجديد وهضم المجتمع هذا التيار المتطور بما امتلك من قاعدة صلدة من تراثه وارثه الحضارى .

ما التراث ؟

تراثنا الفكرى وارثنا الأدبى بما فيه من حضارة سبقت واحتوت حضارات البشرية ، وأبدعت فى خلق الجديد أعانت على تطور حياة الانسانية ، ورفعت المستوى البشرى الثقافى، بما فيه من علم وفن وأدب وعادات اجتماعية وتقاليد فكرية وأساليب حضارية .

ان التراث الحضارى الجيد لكل أمة هو العامل الفعال فى تطوير حياة تلك الأمة ، يمدها بالقوة المعنوية والثقة بالنفس ويحفظهما من الذوبان والضياع والاندثار .

فهل كل ماورثناه من تراث خلال العصور الطويلة للأمة العربية من حضارة له حدود ؟

وهل التراث الحضارى مقصور على المخطوطات المحفوظة فى خزائن الكتب فى المكتبات العالمية ؟

وهل فى هـذه الكتب كل مضـمون حيـاتنا العقلية والاجتماعية والفكرية والعلمية ؟

وما أثر الحياة الاجتماعية العربية المعاصرة بالمنظور الواقعى ، وما رؤيتها المادية والأثر الحضارى القديم فى سلوك البشر وعاداتهم وتقاليدهم ، وطراز لباسهم وأسلوب طعامهم وشرابهم ، وفنهم اليومى وغنائهم الشعبى ؟ ٠٠ اضـافة الى ماضاع من هذا التراث الاجتماعى واندثر ٠

وهل يمكن أن نعد حياتنا اليومية هذه جزءا من التراث ، ومن جذور تكوين الأمة العربية الحضارى وامتداد أصولها الاجتماعية ٠

لاشك فى أن هناك مؤثرات حضارية ضاعت وأساليب اجتماعية اندرست من جـراء الغـزوات الكثيرة والتـأثر بالأجانب ، وان هناك عـادات كثيرة انمحت ، كان المجتمع يحافظ عليها ، بعد أن ضاعت شخصية العربى وانحسر أثره الحضارى وتأثيره السياسى وتوجيهه الفـكرى ، بانحسـار الحضارة الاسلامية والتأثير التراثى العربى ٠

فالمخطوطات العربية وحياة المجتمع المعـاصر لابد من تلازمهما لان المخطـوطات حفظت جانبا من التراث وحفظت حياة المجتمع العربى جانبا آخـر منه ولابد من الاسـتفادة الكاملة منهما لان حيـاة المجتمع لم تأت من فـراغ فكرى ، وتقاليده الجيدة لها قواعد أخلاقية فرضتها وحفظتها القرون الطـويلة وهى متلازمة مع ماورثناه وتأثـرنا به بصـورة لا شعورية وأصبح جزءا من حياتنا المتطورة المعاصرة ٠

ثانيا : كيف نختار من التراث العربي ؟

احتشدت العصــور التاريخية بأنواع شــتى من الآراء والأفكار احتكاكا بالامم الاخرى ترجمة ونقلا منها ، اضافة الى مافي تراثنا من أصالة وغرابة ومن حسن وسيىء • يصعب فصله وغــربلته ، فاختلطت الفلســفات الاجنبية والافكار الغربية وتيارات الحضارات المتباينة في تراثنا ، وأصبح من الصعوبة فصل التراث الاصيل من الموروث القديم كله ، لان الاختيار بحاجة الى جهد متواصل وصبر وتأن كبيرين ، وأن يكون المختار حياديا له اختصاص بما يختار منه واضعا نصب عينيه مايلائم العصر الحديث من هذا التراث • سائرا وفق أســلوب علمي واضــح ومنهج مخطط دقيق يلتزم به •• ليتخلص من فضول لايناسب المعاصرة ولايخــدم حضــارتنا الحديثة •

وأن تشمل هذه الحركة مختلف الآداب والفنون والعلوم والفلسفة والرياضيات لترســخ الثقة بالنفس ، وترســم صورة صادقة للعربي المعاصر ، وبخاصة الشباب، وقد يساعد المختار ماصدر من كتب متنوعة في الشرق والغرب وبلغات متنوعة ، وما قام به العرب من مختارات في الشعر والأدب وما درس من هذا التراث وكتب عنه من الكتب والدراسات •

وهي لاتقتصر على فرد واحد ، لان العملية ضخمة ويجب أن تكون حذرة ونشطة وواعية ، لان الاختيار الموفق من أهم المقومات الحضارية لرسم صور جيدة ، فيها من عناصر الابداع مايرفعها الى مستوى الانسانية والمعاصرة •

وغربلة التراث لاتكفيه النظرة المحايدة مالم يكن الحياد له نظرة عميقة منسقة مع بقيـة التراث ، ولابد أن يكون المفكر الحيـادى المشرف على هـذه الغـربلة ملما الى جانب اختصاصه بتطورات الحياة المعاصرة ومعـرفة واسـعة بأثر حضارة الغرب ، ليلائم مع مايختار هو ومايختاره أصحابه ·

ان عملية التقـويم والتقييم عملية حضـارية متطورة متسعة الرقعة ، ومتى كان التراث المختار جديدا وجيدا فسوف يدفع الحداثة والمعاصرة نحو التطور وسوف يلف حوله أولئك الذين يرون فى التراث مادة قديمة يجب أن تترك فى زوايا الاهمال ، وأن ينمى الذوق المعاصر ويفيده ، ويمتع الذوق العام والحس الفنى الحديث ·

ان التخريب الفكرى والتلوث الأدبى الذى ران على الأدب العربى والفكر المعاصر بحاجة الى جهد كبير بعـد أن ابتعد الجيل المعاصر عن تراثه وأضاع شخصيته وارتجت مثله وضاع بين التيارين الشرقى والغربى ·

واحيـاء المفيد من التراث وعـرضه بأسلوب جـديد وتجريده من الضعف والهـزال سينظر اليه نظـرة واقعية واضحة الهدف ، وتصبح للأبعاد التراثية أهمية علمية تساير ركب الفكر العربى فى مختلف المجـالات الادبية والفنيـة والاجتماعية ·

ومما لا جدال فيه أننـا ورثنا تبعة كبيرة ومخـزونا حضاريا كبيرا سدت أمامه الابواب فانغلق الفكر الادبي تبعا لغلق باب الاجتهاد الدينى ، فانصرف الكتاب والمفكرون عن حركات اصلاح الشعر والادب وعورضت الاصلاحات بشدة وقتل الرأى الجيد المفيد فشاخ فكرنا وتدهور الابداع وأدى

الى (مجتمع خضع للطاعة الفردية وفقد ارادته وشتان بين مجتمع قائم على الطاعة العمياء ومجتمع قواعده الارادة الحرة والفكر المطلق الذى يحقق الحرية والابداع والتطور ، لان منح الفرد حقه فى التعبير وابداء الرأى من عوامل قوة الأمة ورسوخ قواعدها الفكرية) (١) ·

ولن يتم هذا الهدف الكبير الا اذا وعينا هذا التراث وفهمنا واقعه الحضارى باحصاء شامل للجيد منه والمبدع الذى برز فيه المفيد الذى يساير الحياة المعاصرة من شعر ونثر وفكر وفلسفة وفن وعلم صرف ونقد بناء ·

فليس كل شعر امرىء القيس ولبيد وجرير والفرزدق وأبى تمام والمتنبى جيدا ومفيدا وليس كل فكر ونثر الجاحظ وعبد الحميد الكاتب والفارابى وابن سينا يمكن الاستفادة منه ، وليس كل ماجاء فى كتب الطبرى والمسعودى وابن خلدون يمكن آن يتخذ نموذجا يحتذى فى البحث والكتابة ·

ذهب عصر متون اللغة والصرف ومنظومات العلوم والتعليق على الكتب وشرحها ووضع حاشية لها ومثلثاتها وشروحها ، ولم يعد الفكر بقادر على حفظها وصرف الوقت من أجلها بعد انتشار المطابع والكتب ، لم نعد نرى فى العصر الحديث (كامل التوقيع فى فن البديع) (٢) (وبلوغ الأرب فى أستعارات العرب) (٣) و (غنية الأديب فى شرح مغنى اللبيب) (٤) و (غيث الربيع فى علم البديع) (٥) ·

---

(١) الحركة الفكرية فى العراق ص ١٣

(٢) لابراهيم فصيح الحيدرى ·

(٣) لأبى الثناء الألوسى ·

(٤) لعلى دروبشى ·

(٥) لمعروف النودهى ·

بعد التطور الجديد ألفت كتب جديدة بأساليب حديثة حاولت فهم هذه العلوم وتقريب الصعوبات التى تكتنفها • فقد وعى المفكر واقع الآمة واختار مايلائمها وطور العلوم والآداب والأساليب الجمالية والتشبيهات الفنية والصور الأدبية ومايلائم هذا العصر ، وتحدث عن البيئة والمحيط والمشكلات التى يعانى منها والتيارات الاجتماعية التى تجتاح أمته :

والتراث الحضارى كل لايمكن بتره وفصله ، سواء أكان أدبا أم فنا أم علما من العلوم الصرفة يمكن الاستفادة منه حسب حاجة المعاصرة •

وقد تطورت الأمور وبدآ التجديد عندما آنشآ على مبارك دار العلوموأدخل أول تيار حديث أعقبه انشاء الجامعة المصرية التى سار على نهجهاالعرب فى تأسيسجامعاتهم (١) •

ان الاختيار يجب آن يكون بعيدا عن الغموض واضح العبارة سهل التناول دون الخجل من بدايات العلوم الاولى واللبنات الأولى التى وضعهاالعالم العربى والباحث الاسلامى، سواء فى معرفة الدورة الدموية آو فى آسلوب البحث العلمى أو الأساليب الأولى لاستعمال آلات التشريح •

وأخيرا ان جمال الشعر واختيار غرره الفنية ليعكس لنا القيم الحضارية والاعمال الفنية التى يتذوقها العربى والمسلم ، ويرسم لنا قيم الحضارة فى جمالها وروعتها وسوف تعطى هذه القيم قاعدة جديدة ومنطلقا فى الابداع والفن والمتعة •

---

(١) كان الأزهرى يقرأ (متونا وشروحا كثيرة لاحظ حلية الزمن ٢٣ ـ ٢٤) منها جمع الجوامع فى أصول الفقه ومشارق الأنوار فى الحديث وشرح الأشمونى على الفية ابن مالك وشرح ابن عقيل على الفية ابن مالك •••) (أصول الفكر العربى الحديث ص ٧ للدكتور محمود فهمى حجازى القاهرة ١٩٧٤) ولمعرفة أسماء الكتب تدرس (الاجازات العلمية) التى كانت تمنح للطلاب بعد اتمام الدراسة •

ثالثا : احتواء الحضارة الغربية

كان الخوف الدائم من الغرب مدعاة انغلاق روحي وفكري وأدبي ، وكل مايأتي من الغرب ضلال وكفر ، وحذر المفكرون أولياء الامور من ارسال أبنائهم للغرب للدراسة لانها سوف تدهور عقيدتهم وتفسد عليهم عقولهم ودينهم . وبلغ من كراهية تقليد الغرب والاستفادة منه أن عزل السلطان سليم الثالث عندما أراد تطوير الجيش العثماني وبناء صناعات جديدة في الدولة سنة ١٧٩٦ وعد مبتدعا لانه (أدخل نظامات الافرنج وعوائدهم وأجبر الرعية على اتباعهم) (١) .

لاشك بأن العالم العربي والشرقي والاسلامي كان يعيش في سبات عميق ، وفي تفكير الفروسية القديمة والمثل التي لا تلائم العصر ، ولم يستيقظ الا على أصوات مدافع نابليون وطلقات بنادقه ، والطريف أن أحد الغياري من المسلمين جلب معه عدداً من هذه البنادق قبل الغزو إلى مصر وعرضها على المماليك ، وأخبرهم بأن الغرب يحارب بها فرفضت لانها لاتدل على الشجاعة وانما الحروب يجب أن تكون بالسيف والرمح على صهوات الخيل التي انهارت وسقطت أمام تلك الآلة التي احتقرت وجرت عليهم الهزيمة .. ولا أدري ماكان مصير الحرب لو انتبه المماليك الى هذه البنادق واستعملوها ؟!

---

(١) الحركة الفكرية في العراق ص ١١ و ١٢ .

ووقف عدد كبير أمام التيارات الغربية موقفا سلبيا ، وعدها من البدع والضلال الذى يجب أن يقاوم بعنف ، وعد أعمال الغرب سبة حتى ابتعد عن (أخذ الصور الفوتوغرافية) لانها غربية ولان الصور محرمة وان أحد الأطباء الغربيين لم يجد من يراجعه برغم انتشار الأمراض (١) فى البلد الذى كان يعيش فيه ٠

ان الاختلاف الذى حصل من وصول حضارة الغرب خلق جوا من الخوف والترقب والمتناقضات عند المفكر ، وولد صراعا فكريا سببه التمزق والتشقق فى البناء الحضارى والثقافى الذى كان مسيطرا على الشرق (٢) ٠

وكانت فضائل المفكر بأنه بعيد عن كل غربى فقد امتدح أبو الثناء الالوسى أحد الحكام فقال (والظاهر أنه لم يسمع منه جليس ، حديث لندرة وباريس ، ويكفى أهل البلد اليوم أن واليها سالم من تلك الوصمة ، وقلما تنال هذه الرحمة ، في هذا الزمن الذميم (٣) ، ولما كان الغربى يقطع اللحم بالسكين فقد عد قطع اللحم بالسكين عند الأكل حراما لأن ذلك تقليد للغرب حتى قال الألوسى لهذا الشيخ صاحب الفتوى (يامولاى أقطع بعدم كفر من يقطع) ٠

ووعى قسم آخر هذه الحضارة وأراد الاستفادة منها فى تطور الحياة وليس فى المظاهر كاللباس والطعام الذى

---

(١) رحلة متنكر تاليف ميجرسون ص ٢٥٤ عن الحركة الفكرية فى العراق ص ٨٩ ٠

(٢) ابراهيم صالح شكر وبواكير النثر فى العراق ص ٤٧ و ٤٨ والحركة الفكرية فى العراق ص ٨٩ ٠

(٣) نشوة المدام ص ١٠٣ ٠

أدهش رفاعة رافع الطهطاوى أسلوب تناوله على المائدة فذكره أكثر من مرة في كتابه تلخيص الابريز أنقل لكم منه :

ولم نشعر فى أول يوم الا وقد حصل لنا أمور غريبة في غالبها ، وذلك انهم حضروا لنا عدة خدم فرنساوية لانعرف لغاتهم ونحو مائة كرسي للجلوس عليهـا لان هـذه البـلاد يستغربون جلوس الانسـان على نحو سـجادة مفروشة على الارض فضلا عن الجلوس بالارض ، ثم مدوا السفرة للفطور ثم جاءوا بطبليات عالية ثم رصـوها من الصـحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز وسكينا وشوكة وملعقة ، فى كل طبلية (قزازتين) من الماء واناء فيه ملح وآخر فيه فلفل ، ثم رصـوا حـول الطبلية كراسى لكل واحد كرسي ، ثم جاءوا بالطبيخ فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع فيعطى لكل انسان فى صحنه شيئا يقطعه بالسكين التى قدامه ، ثم يوصله الى فمـه بالشوكة لا بيده فلا يأكل الانسان بيده أصلا ولا بشوكة غيره أو سكينه أو يشرب من قدحه أبدا ، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة . ومما يشاهد عند الافرنج أنهم لايأكلون أبدا فى صحون النحاس بل ولا فى أوانيه أبدا ولو مبيضة فهى للطبخ فقط ، بل دائما يستعملون الصحون المطلية ، وللطعام عندهم عـدة مراتب معروفة وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها، فاول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة، ثم بعد باللحوم ثم بكل أنواع الأطعمة كالخضروات والفطورات ثم بالسلطة مثلا خضر منقوشة بلون السلطة ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ثم بالشراب المخدر ، الا أنهم يتعاطون منه القليل ثم بالشاى أو القهوة ، وهـذا الأمر مطرد للغنى والفقير كل حسب حاله ثم ان الانسان كلما

أكل طعاما فى صحنه غيره · أخذ صحنا غير مستعمل ليأكل فيه طعاما آخر) ·

(ثم انهم أحضروا لنا آلات الفراش ، والعادة عندهم أنه لابد أن ينام الانسان على شيء مرتفع نحو سرير ··) (١) ·

وأهم الآراء التى نشرها رفاعة وتأثر بها وأراد نشرها بين المواطنين هي آراؤه السياسية التى لم تطبق حتى اليوم كما حلم بها هذا المفكر الفذ · فقد كان المشرق فى عصره يعيش تحت حكم فردى سواء فى مصر أم فى الدولة العثمانية لا يرى السلطة الا للحاكم وليس للشعب حق الا الطاعة العمياء (لذى النعم) صاحب الكلمة العليا والمنفرد بالسلطان والجبروت ·

فلا تعجب ان وجد الفارق الكبير بين حرية الشعب الفرنسى وعبودية الشعوب فى الشرق كله ، فترجم هذه الحقوق وانبهر بها عندما قرآها فى القانون الاساسى الذى حد من سلطات ملك فرنسا وساواه بأبناء الشعب ، وكان يأمل أن يعى الشرق واقعه ويتنسم عبقات الحرية التى افتقدها فقال ·· (ان ملك فرنسة ليس مطلق التصرف وان السياسة الفرنساوية هى قانون مفيد ، بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين) (٢) ·

وعندما رأى التفاوت الكبير بين أبناء الشعب المصرى وبين الطبقة الحاكمة هزته رؤية المساواة الموجودة بين أبناء الشعب الفرنسى اذ ليس هناك فارق بين حاكم ومحكوم وانها تشمل (·· سائر من يوجد فى بلاد فرنسة من رفيع ووضيع

---

(١) تلخيص الابريز ص ٣٤ حجازى ص ١٨٦ ويلاحظ ص ٩١ ·
(٢) تلخيص الابريز ٨٠ ـ ٨٢ و ١٧٠ ـ ١٧٢ ·

... حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ..) (١) .

واعجب اعجابا كبيرا بهذه المساواة لانها دليل على نشر العدل وحماية المظلوم وانحسار الظلم وبرهان على رقى هذه الأمة وتقدمها . وعندما رأى أن الوظائف ليست مقصورة على أسرة واحدة أو طبقة محددة أو اتجاه واحد ورأى انسان مفرد يرفع الناس وينزلهم فقال بأن الفرنسى متأهل لأى منصب وأية رتبة مهما علت هذه الرتب وارتفع مقامها .

وقد أدهشته وأعجبته حرية التعبير وابداء الرأى فى الجرائد التى سماها الجرنالات والكازيطات ووقف موقف المتعاطف المعجب من الثورة الفرنسية . ورآها ثورة عادلة لانها قضت على حكم الملك الفردى عندما تدخل فى حرية الناس وأراد أن يحد من الرأى العام الفكرى ولو كان عادلا منصفا دستوريا لما قامت ضده ، انها رد فعل لأعماله التعسفية .

ويظهر تعاطفه الواضح وتقديره للافاييت واحترامه له لانه نادى بالحرية ووقف ضد الاستبداد والظلم والجور وأراد نشر الديمقراطية وحكم الشعب .

ووقف باعجاب أمام حرية انتقال أبناء الشعب من بلد الى آخر ، وعدم تدخل الدولة فى حرية اختيارهم للعمل وساعات الراحة ولم يترقب المواطن خوف النفى والحبس ومصادرة أمواله فهو آمن فى قوله وانتقاله ورأيه . لايخاف السلطة مادام محافظا على القوانين (٢) .

---

(١) مناهج الألباب ٣٥٨ .

(٢) المصدران السابقان .

ومرت الآراء السياسية التي نقلها الطهطاوي الى المشرق كله عندما أكد على حرية الانسان في القول والمناقشة والسفر وتأسيس الأحزاب ونشر الكتب والمجلات والجرائد دون خوف من السلطة ، وغدت الدعوة الى الحرية الشخصية ومهاجمة الحكم الفردي من مميزات العصر الجديد ، وأصبحت سمة المفكر المتطور في الأدب والسياسة ، وكان من نتائج هذا الفكر أن نشر عبد الرحمن الكواكبي (أم القرى) و (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) (١) الذي رأى فيه أن (الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضني الأجسام فوق ضناها بالشقاء فتمرض العقول ، ويختل الشعور) (٢) وانقسم الفكر الى محافظ ومجدد أراد تقليد الغرب بكل ماجاء به من حضارة ..

أما المحافظون فدعوا الى الالتزام بالتراث وابعاد الغرب حتى ظهر محمد عبده داعيا الى التوسط بين الأمرين ، فكانت حركة عارمة في الفكر الحديث اشتهرت بطبع (عربي تفرنج) لعبد الله النديم .

ومرت المؤثرات الحضارية من مصر الى العراق ، وبدأ الكاتب يتخلص من المحسنات اللفظية . وظهر وعي جديد يدعو الى تطوير الحياة ، ونشطت الدراسات العلمية ، أعانها مصلحون كالشيخ محمد عبده وعبد الله فكري والمرصفي .

وانتشرت الجرائد والمجلات وأخذت تدعو الى الأخذ من الغرب (لان دخول الاوروباويين لطريق الترقي كان منذ ثلثمائة أو اربعمائة سنة قبلنا) (٣) وبدأت تتأسس المطابع.

---

(١) هناك في كتابي (الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب الحديث) تفصيل عنه .

(٢) طبائع الاستبداد ٨٣ .

(٣) فهمي المدرس من رواد الفكر الحديث ٢٧ .

فى الأقطار العربية وهو الحدث الكبير الذى نشر الفكر بصورة واسعة وجلب لنا كل مافي الغرب من آراء ومخترعات فوسع مصادر الابداع والانتاج وتفتحت آفاق جديدة وقرأ المفكر آراء جديدة وفلسفات لم يسمع عنها من قبل ونظريات لم تدخل ضمن ثقافته ·

ان فكرة احتواء الحضارة الغربية بدأت من أيام محمد على ، عندما عاد طلاب البعثات واشتهرت فى أيام اسماعيل ، وولدت جيلا جديدا · وكان من طلابها البارودى واسماعيل صبرى وشوقى وحافظ رمطران والرصافى والزهاوى ، وفى كل بلد عربى كان الأثر واضحا لما يدور فى مصر وقد كان طه حسين وسلامة موسى من المجددين والمنفلوطى والرافعى من المحافظين ·

وظهرت التيارات الفكرية الجديدة بآثارها الواضحة على مسيرة الفكر متأثرة بالأفكار التى نادى بها جمال الدين الأفغانى والكواكبى ومحمد رشيد رضا ومحمد عبده وشكيب أرسلان وشبلى شميل ·

وكان للمناقشات التى أثيرت حول الاصـلاح والتطور صدى فى الأقطار العربية · فلكل حركة أثر ، ولكل مناقشة مؤيد ومعارض اذ لم تكن الاقليمية قد غرست بعد ، فالعربى فى جميع الأقطار يتأثر بما يقوله المازنى والعقاد فى الديوان ويثور جدل القديم والحديث ويتعصب كل واحد لطرف من الأطراف سواء أكان مع طه حسين أم مع الرافعى أم ضـد شوقى أو معه ·

وكانت مصر مثلا يحتذى فى حل المشكلات الفكرية وحتى السياسية التى تجرى بين الوفد ومعارضيه والحزب الوطنى والأحزاب الأخرى ، ووجدنا من ينتصر للطفى السيد ضـد

العقاد ويهاجمه ويدافع عن العقاد ويهاجم (شوقى) ، ومن يهاجم العقاد والمازنى معا لانهما تآمرا على شكرى ، ومن يتعصب للدكتور هيكل وكتبه ، فاشتهرت أسماء كثيرة مثل محمود عزمى وهيكل واسماعيل مظهر وسلامة موسى .

كما ردد الكتاب أسماء كتاب الغرب ومخترعيهم مثل ديكارت وكورنيل وجيمس جويس واديسن ، ونشر الفكر الروسى وعرف توركنيف وكوكول والآراء والفلسفات كالاشتراكية والديموقراطية والديكتاتورية والفاشية .

الأدب والفكر

أما الشعر والأدب بصورة عامة فقد تأثرا تأثراً كبيرا واضحا بكل التيارات الفكرية الغربية وأفكار التجديد الحديثة سواء أراد الشعراء والأدباء أم لم يريدوا لصلة الأدب الوثقى بالصحافة والميادين الأخرى كالقصة والمسرح والمقالة والنقد .

كان دعاة التجديد يتباهون بمعرفتهم الأدب الغربى والفكر الأوربى . ويرد عليهم المحافظون بأنهم يفسدون التراث الأصيل والذوق المرهف ويطمسون حضارة العرب والاسلام ، ويرد عليهم طه حسين بأنهم لايعرفون أصول البحث العلمى وفلسفة ديكارت ، وبالتالى فهم يعيشون فى قوقعة العصور القديمة . ويهاجم أحمد شوقى لانه لم يأخذ بالثقافة الفرنسية وتيارات الأدب الغربى .

وكان من دعاة التجديد خليل مطران بثقافته الغربية وغربته الروحية فى مصر فقد قال :

ان التجدد للسان حياته ومن الذى يجنيه غير المقدم

ويساعده الدكتور أحمد زكى أبو شادى ومن لف لفه فقال :

ولست أعيش فى قرن تمضى   ولا فى غير ذا الوطن الجميل

ويقول الرصافى :

وهل ان كان حاضرنا شقيا
نسود بكون ماضينا سعيدا

ويقول الزهاوى :

سئمت كل قديم عرفته فى حياتى
ان كان عندك شىء من الجديد فهات

ولعل أشد هجاء لدعاة التجديد الشاعر محمد عبد المطلب عندما رأى دعاة التجديد يدعون الى الأدب المكشوف قال :

نزعوا الى دنس الاباحة فانجلى
للناس ذاك المنزع المرذول

مازوا الجديد من القديم ومادروا
ان الجديد من القديم سليل

جلبات افك فى مهالك فتنة
هوجاء كيد غوائل تضليل

ووقف سامى الكيالى ضد هذا التطور بصورة عامة وضد أدب المهجر بخاصة ، وسخر من استعارات هذا الأدب وأسلوبه ووصف أدبهم بأنه (مخنث يستمد مادته من فضاء الخيال السخيف) (١) .

وكان المنفلوطى من رواد الأدب الذين هاجموا هذا

---

(١) الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد حسين ص ٢٧٧ و ٢٧٨ .

التجديد الذى رآه بأنه (أعجمى يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لايعرف منها غيرها فينطق بشىء هو أشبه الأشياء بما يترجمه المترجمون من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية . فان نعيت عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه عن الفهم ، كان مبلغ ماينضح به على نفسه أن المعانى العصرية والخيالات الحديثة لايستطاع الباسها الأكسية البدوية والأردية العربية ... أما الحقيقة التى لاريب فيها فهى أن الرجل لاينزع المعانى من قرارة نفسه ولايصور فيها صورة عقله انما هو مترجم قد عثر بتلك المعانى فى اللغة الأعجمية التى يعرفها لاصقة بأثوابها الأصيلة . فلما آراد أن يفضى بها الى العرب وكان غير مطلع بلغتهم ولا متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها فتعلمها كما هى ، الا ماكان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بلفظ) (١) .

الجيل الجديد

وبعد الحرب العالمية الثانية اتصل الفكر العربى بالغرب اتصالا وثيقا بانتشار اللغات الأجنبية فى المدارس والكليات، وكثرت مراكز الدعاية للتيارات السياسية للدول الغربية ، وبدأت المنازعات فى سبيل احتلال فكرى جديد بعد أن انحسر الاحتلال العسكرى . وزاد الاعجاب بالغرب وأساليب الغرب وأدب الغرب ثم أمريكا احساسا بالنقص وحبا للشهرة مع ضحالة ثقافة الجيل الذى ابتعد عن الأصالة العربية وصفاء اللغة وجمال أساليبها بعد أن زحمت الكتاب وسائل الاعلام الكثيرة . ولم يعرف هذا الجيل جذور التطور الغربى ودوافعه النفسية والمؤثرات الفكرية والفلسفية التى أثرت فيه والحاجات الاجتماعية التى دعت الى ظهوره فى وطنه .

(١) محمد حسين ص ٣٥٢ عن النظرات .

وكان من جراء تبنى حضـــارة الغرب سـيطرة القلق العميق والحيرة العقلية التى ولدت من الفراغ الروحى وحب الذات والاتجاه نحو العنف فى كل شىء ، وطالب الأدب بالمتعة العاجلة والانغماس فى الشهوة العــارمة ، فسيطر التشاؤم والسخط والعنف وطلب الأشياء الغريبة والصور المستهجنة والأساليب الركيكة وهــذا واضح كل الوضـــوح عند أكثر شعراء وكتاب مابعد الحرب العالمية الثانية (١) ٠

ولما وجد هذا الجيل نفسه بعيدا عن لغته أخذ يسخر منها ومن التراث ، وحاول الشعر التخلص من الوزن والقــافية والمعانى الأصيلة ليغطى على ضعفه اللغوى وقلة محصوله فى المفردات والكلمات ، وظهرت أسماء جديدة للشعر فهو مرسل ومنثور وحر ومنطلق ٠ وقد ساعدت الأحداث المؤسفة وهوان العرب النفسى أمام الأعداء على انتشار الاضطراب النفسى والقلق الروحى وعلى الاستعجال فى الدراسة والحفظ لمواجهة الخطر المحدق بنا كما ساعدت على اليقظة الفكرية ورد فعل عميق لها والثورة على المفاهيم العامة فدخلت المتناقضات فى الشعر وتجاوزت مرحلة التطور الى ركوب موجات الشــعر الغربى وتقليدها واتخاذ شعراء الغرب نموذجا يحتذى مثل وتمن وت٠س٠ اليوت وإديث ستويل وعــزرابا وند دون الاحساس بأن هؤلاء تأثروا بالحوادث الدينية الموجــودة فى العهدين الجديد والقديم ، وأخذ الشعراء الجدد يبتعدون عن اللغة العربية ولايكترثون للنحو والصرف والاطــار الفنى والأصالة الشعرية والرواء الممتع ، فاختلت المفاهيم الفنية عندهم والمثل السياسية فى أدبهم وزاد فى الغموض والقلق ، أن أكثرهم فقد حرية التعبير فى أوطانه وخاف من ســطوة

(١) كتبت فصلا عن هذه الظاهرة ضمن كتابى (تطور الشعر الحديث ، بواعثه النفسية وجذوره الفكرية) مطبوع فى جده ٠

الحكام وانتقامهم وظهر الرفض والاحتجاج والثورة فى شعرهم ضد المجهول تارة وضد اسرائيل تارة آخرى وضد الاستعمار ثالثة ووصف الشهيد رابعة •• وانتشر الرمز والغموض مستمدا من ترجمات الآدب الغربى وأساطير اليونان والرومان ليعبر عما يجيش فى شعوره من سخط وتبرم على حاضره الذى لم يسعده وعلى وطنه المقيد الحرية ، وانصرف بعضهم الى الجنس والمتع الأخرى يصفها ويؤثرها ويتحدث عنها بصراحة تامة دون مواربة أو حياء ليقال انه مجدد وجاء بشيء حديث •

وكانت حداثة مدمرة لكل مقاييس الجمال الشعرى والأسلوب الفنى جزع منها الذين بدأوا بها ، حتى قال عنهم نزار القبانى انه (جنس ثالث) وكثرت الأساطير الغربية دون فهم لها والألفاظ الاوربية دون سبب واضح ولجأ الشعر الى الانحرافات والرموز العجيبة وتحول الشعر من الاسطورة الى عبادة وثن جديد ، لايعرفون مصدره ومكانه وان كان موجودا فى وجدانهم ممثلا فى السيامة •

ولاشك فى أن بعض الشعر جيد الأسلوب ، وأن هناك شعراء حافظوا على اللغة العربية وأساليبها ورواء الفن وجماله وصوره المبدعة وصور آدبهم صورا خالدة فيها جمال للفن والابداع •

وفى الختام قد كنت حاضرت عن جانب من هذا الموضوع بعنوان (التحدى الحضارى والغزو الفكرى) وقد طبع فى الرياض كما انجزت المطابع فى جدة كتابا لى بعنوان (تطور الشعر العربى الحديث جذوره الفكرية وعوامله النفسية) فيه أشياء كثيرة عن التجديد والتطور والتراث •• أرجو أن يكون بين أيديكم فى الدورة المقبلة ان كتب لنا أن نسعد بكم •   والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مصادر ومراجع تفيد الباحث

١ ـ أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى
الدكتور محمود فهمى حجازى

٢ ـ نظـرية التراث
الدكتور فهمى جـدعان

٣ ـ الحركة الفكرية فى العراق
يوسف عز الدين

٤ ـ فهمى المدرس من رواد الفكر العربى الحديث للمؤلف

٥ ـ تراث الاسلام فى طبعتين للمؤلف

٦ ـ الاتجاهات الوطنية
الدكتور محمد حسين

٧ ـ ديوان الرصافى
معروف عبد الغنى

٨ ـ التراث والتجديد
الدكتور حسن حنفى

٩ ـ النظـرات
المنفلوطى

١٠ ـ رحلة متنكر
تاليف ميجرسون

١١ ـ ابراهيم صالح شكر
يوسف عز الدين

١٢ ـ نشـوة المـدام
أبو الثناء الالوسى

١٣ ـ مناهج الألبـاب
رفاعة الطهطاوى

١٤ ـ الاشتراكية والقومية وأثرهما فى الأدب الحديث.
يوسف عز الدين

١٥ ـ طبائع الاستبداد
الكواكبى

١٦ ـ أم القـرى
الكواكبى

١٧ ـ تطور الشعر الحديث
يوسف عز الدين

الفصل الثاني :

تراثنا بين الإهمال والتحقيق

تراثنا بين الاهمال والتحقيق

التراث العربى الاسلامى من أخصب ما تركت الانسانية، فعلى قواعده قامت الحضارة الغربية المعاصرة ، ومنه استمدت تطورها وتجديدها فى العلوم والفنون والآداب • لأن هذا التراث عنى بالنفس الانسانية وانتاجها العلمى والفنى فكان فى مسيرته الحضارية اتساع روحى وتكامل انسانى •

وقد أثرت آدابنا وحضارتنا فى فنون الغرب المختلفة وآدابه وعلومه بآرائه وتياراته وزخرفته الفنية وخطه المتطور ، وقد ظهرت فى صناعتهم وفنهم وفكرهم •

فقد زرت ايطاليا لحضور مؤتمر المستشرقين الايطاليين، وجلت فى أرجاء مدينة (بالرمو) فوجدت الأثر الحضارى الاسلامى فى طراز البناء واللغة والطعام والحياة الاجتماعية واضحا أشد الوضوح •

واختلفت لغة صقلية عن الايطالية اختلافا بينا ، ولايرضى أبناؤها أن تسميها بالايطالية انما هى لغة صقلية خاصة بهم ، لأن الأثر العربى تغلغل فى طياتها ووجدت صقلية لها لغة تغاير الايطالية وان كانت منها •

حضارة العرب على وجه ايطاليا

ولاشك بأن تأثير الأندلس واقامة العرب فى جنوب ايطاليا صور التراث العربى الاسلامى فى الحياة بوضوح

وبدقة وعمق فغير حياة صقلية وبدل كثيرا من مفاهيم الحياة فيها ٠

ويجد الفاحص آثر الفن الاسلامى فى الفنون الأوروبية فى الزخرفة والأعمدة والأمور الهندسية ، منها الزينة بأوراق الأشجار والأزهار والابتعاد عن الحيوانات والانسان فى الصور ٠

رد على هجمات الغرب وسطحية الثقافة :

وفى هذه الفترة من تاريخنا لابد لنا أن نستلهم تراثنا الحضارى الضخم ونختار ماهو قريب للحياة المعاصرة بعد هجمة الغرب الشرسة على تراثنا وحياتنا فنشرت الحيرة والقلق والشك فى الجيل الطالع وتسرب الى أدبهم القلق والفوضى وضياع الشخصية ورجرجة الفكر فشكوا فى الحاضر والمستقبل بعد أن بهرتهم هذه الحضارة لأنهم لايملكون القاعدة الفكرية الأصلية لمواجهة حضارة الغرب ولأن ثقافتهم سطحية سريعة التأثر بالجديد والحديث ٠

هل يجتمع تراثنا فى مركز واحد ؟٠

ومن الخطوات المهمة جمع التراث فى مركز واحد أو أكثر ، لأنه قاعدتنا الحضارية ، وأصل الفكر الانسانى فى عصوره الزاهية لأن أكثره اليوم منتشر فى أنحاء العالم ويصعب أحيانا الحصول على مايريد الباحث والدارس ٠

حضارتنا ـ حضارة أنسانية

ان الحضارة العربية لم تكن خاصة بالعرب أو الاسلام ، وانما احتوت الحضارات المعاصرة واستفادت منها وزادت

عليها وصهرت تراث الأمم فى بوتقتها ، ففيها خير ماعند الفرس والرومان واليونان والهنود لأنها كانت حضارة انسانية خدمت البشر كله وقدمت خير الخدمات للعالم بما زادته وهضمته من تلك الحضارات فجعلتها جديرة بالحداثة والمعاصرة ٠

الصفر العجيب وفك العمليات الحسابية

كان التطبيق العلمى والرياضى والفلسفى والطب فى مختلف المجالات مدعاة تخليد لهذه الحضارة ، وحسب العرب أنهم أوجدوا (الصفر) فى تسهيل العمليات الحسابية المطولة وتطوير الأرقام وقد اشتهر من العلماء العرب : ابن الهيثم وابن النفيس وابن سينا وجابر بن حيان وقد قرأت محاضرة للأديب العالم الدكتور راشد المبارك ضرب فيها شواهد علمية ماتزال حية حتى هذا اليوم ، ومنها بدايات علمية واختراعات كانت مجهولة فان المهندس الآلى وليام كونتك كان فى بغداد يشرف على مجاريها سنة ١٩٣٠ (فعثر على صندوق صغير يحتوى على أشياء قديمة عليه كتابة عربية وعند فتحه وجد بين الأشياء التى يحويها الصندوق صفيحة كهربية يرجع عهدها الى عدة قرون ٠٠٠)

وقد اشترتها جامعة بنسلفانية وظهر بعد الفحص (انها صفيحة كهربية تتركب من أقطاب من الحديد والنحاس ومن محلول لم يحددوه) ٠

أليس هذا الصندوق أنموذجا للبطاريات الحديثة ، وبرهانا على أن العرب اكتشفوا الكهرباء ؟

وفى الكتب التى كتبت عن التراث العربى أشياء كثيرة مثل كتب غوستاف لوبون وأوليرى وزيكرد هونكه ارجو أن

يستفيد العرب منهـا فى فهمهم التراث العربى الأصيـل والحضارة الاسلامية لأن فيها الجديد المفيد • فعندما سافرت الى بلغارية وأردت أن أكتب مقدمة لكتابى (مخطوطات عربية فى مكتبة صوفية الوطنية) لم أجد غير ابن فضلان يتحدث عن تلك الأصقاع التى كانت مجهولـة عند العـرب وعند الأوروبيين •

ان التراث العربى مازال ثرا ومن الضرورى اخضاع التراث للدراسـات الحديثة والآلات المتـطورة فى الفهرسة بالحسابة (الكومبيوتر) لمعرفة أنواعهـا وعددها ووصف نسـخها ومن الضرورى الاهتمـام بالوثـائق التى أهملها الباحثون وبدأوا يعكفون عليها اليوم • ومن خيرة ما طبع (مقدمة فى الوثائق الاسلامية) للدكتور : قاسم السامرائى فقد أثار الباحث قضايا علمية وحقائق مجهولة تملأ النفس بالدهشة والحيرة ، فقد حدثنا عن الجيزة وما فيها من وثائق مذهلة لم يدرسها المسلمون حتى هذه اللحظة •

الجنازة خزينة علمية •

والجنيزة (الجنازة) كنيس يهودى فى مصر فيها حجرة مغلقة ترمى بها الأوراق والمخطوطات والوثائق تحرجا من المسلم واليهودى أن تداس بالأقدام ، وقد تم فتحها فوجدت فيها وثائق تاريخية ودينية •• واقتصادية واجتماعية ، وقد سارعت الجامعات فى تقسيمها فأخذتهـا مكتبات أكسفورد وكمبردج ونيويورك وفيلادلفيا وبنسلفانية والمتحف البريطانى وبدأ العلماء فى دراستها وصدر عنها عـدة كتب ودراسات لأنها كانت غزيرة المادة متنوعة العلوم والفنون • ورسمت جانبا مهما من حياة العالم الاسلامى فى التجارة والاجتماع

والاقتصاد والعلوم الادارية ، ومن آبرز من اهتم بفهرستها الدكتور (شاكد Shaked) فى كتاب له صدر فى باريس عام ١٩٦٤ م بعنوان (فهرس وثائق الجيزة) ٠

ومن القاء نظرة عاجلة سيجد الباحث مقدار الوثائق الديوانية فى مختلف العصور الاسلامية ، وجانبا من الأدب والطب والصيدلة والتاريخ والجبر والمقابلة اضافة الى عدد كبير من الرسائل التجارية ووثائق الشروط وأجـزاء من مخطوطات مفقودة ٠

عودة الى تراثنا ٠٠ وبعيدا عن الانبهار العصرى

ان التراث العربى الاسلامى مازال ثرا وقد كان سجل الحضارة العالمية فى الماضى وتطورها ، فمن الضرورى العودة الى دراسـة وتمحيص واخـراج مايلائم حيـاتنا وبخاصة الاستفادة منه فى المصطلحات الطبية والعلمية والرياضية فى بناء مستقبل عميق الجذور آصيل القاعدة ، وضمه الى الحضارة المعاصرة كيلا يفقد العـربى والمسلم شخصيته ويذيب ذاته ومكوناته الحضارية فى الانبهار الحضارى المعاصر ٠

مجلة (الموحدة) ـ العدد الثانى

ربيع الأول ١٤٠٣ هـ

الفصل الثالث

تراثنا وحضارة الغرب

تراثنا وحضارة الغرب

عندما اتصل العرب بالحضارة الغربية فى بداية النهضة الحديثة أصابتهم الدهشة من تقدمها وأذهلت نفوسهم عندما رأوا تطورها الفكرى والعلمى والاقتصادى • وقد كان تيار الحضارة الغربى عارما قويا مسخ الشخصية العربية عندما حاول العربى الأخذ بها وأضاع الأصالة عندما قلدها وكاد يفقد الحس الوطنى والقومى لما اقتدى بها •

لأن البهر النفسى الذى أصاب الرواد الأوائل حجب عنهم حقيقة التراث العـــربي وأسلمهم الى دروب الحـيرة العقلية والانبهار الروحى •

وقد فاتهم بأن الغـــرب مدين لنـــا فى كثير من مقومات حضارته وتطوره الفكرى واسسه العلمية •

وأن جذور الحضارة الغربية لها مسارب قوية بحضارة العرب بعيدة الغور ودقيقة الصلة بأصالة العرب •

فالطب والكيمياء والفلك والجغـــرافية والرياضـــيات والزراعة والأدب فى الغرب كلها مدينة فى جذورها الأولى وقواعدها العميقة وأصولها الراسخة الى حضارة العرب التى أثرت في حيـــاة الغـــرب الاجتماعية والفنية والأدبية وفي حاجاته اليومية مثل بطـــاقات الزيـــارة وجوازات السـفر والتدفئة المركزية وتبليط الشوارع وانارتها وتنظيمها ،

نشر فى مجلة الكويت التى تصدرها وزارة الاعلام •

حتى الورق مصدر الثقافة والعلوم تعلمه الغرب من العرب مع أقلام الحبر التى تخزن الحبر • وهل يمكن للغربى اليوم الاستغناء عن ضروريات الحياة كالصابون والسكر والزجاج والخزف والقماش والعطر والحبر والقهوة وأنواع الجلود أليست هذه الحضارة تقوم على مثل هذه القضايا ؟ وفي الوقت الذي كانت فيه بغداد والحواضر الاسلامية تنعم بالحمامات ونظافتها وجوها وبخارها كان أبناء الغرب لا ينظفون أنفسهم غير مرة أو مرتين فى السنة وكانت القذارة هى السمة الواضحة عليهم •

الجامعات

ولا يمكن للباحث المنصف أن يغفل المؤسسات الثقافية العامة كالجامعات والمكتبات العامة فقد شمخت بفضل العرب فان شعاراتها الجامعية وملابسها وأنظمتها ودرجات الأساتذة العلمية وتنظيم الدراسة وحرية الرأى عند الأستاذ دون خوف من سلطة أو رهبة من رقيب كانت شمار هذه المؤسسات • فقد كان الخلفاء يعاملون الأساتذة معاملة التقدير والاجلال والاعتراف بفضلهم ورفع منزلتهم وكانوا يحضرون الدروس ويسمعون مناقشاتهم • هذه المظاهر وأنظمة المكتبات والجامعات والمؤسسات الأخرى أخذت تصدر من أوربا الى العرب بعد أن طورت حسب مقتضيات حياة الغرب ونظمه الاجتماعية والوطنية وحسب حاجة البيئة •

ولئن باهى الغرب بالبحث العلمى وأسلوب التحقيق وطريقة جمع المعلومات والدقة فى الاستنتاج والوصول الى النتائج بعد التمحيص فقد ظهرت هذه الأساليب في المنهج العلمى العربى قبلهم بقرون فقد كانت التجربة العلمية رائدهم والنظرة الواقعية للبحث العلمي شعارهم • فقد كان

رشيد الدين عم ابن أبى أصيبعة يوصى طلابه بأن ينظروا في كل خبر عاريا عن محبة أو بغضة وأن يزنوه بميزان العقل والقياس وأن يتفحصوه ـ اذا كان ممكنا على ضوء الحقائق المستمدة من الاختبار • فاتخذوا العقل دليلا والشك مقياسا يوصلهم الى اليقين في غير الوحى • وهذا عبداللطيف البغدادى يقول : (الحس أقوى دليلا من السمع) وقال الغزالى: (من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر) • ولاجدال في أن البحث العلمي والتجربة الصادقة وجمع المعلومات الأصيلة كانت رائد الطبيب عبد اللطيف البغدادى : عندما أراد أن يعرف عدد عظام الفك الأسفل للانسان فقام بفحص حوالى ألفى جمجمة بنفسه وأخذ يقارن بينها بأسلوب علمي صادق وبطريق بحث دقيق فخرج بأن الفك الأسفل هو عظم واحد واتبع في تدريس الطب التطبيق العلمى فقد كان الطلاب يشاركون المرضى حياة المستشفى ويحتكون بهم وبذلك يطبقون مادرسوه نظريا ويرون المرضى بأنفسهم •

وقد انتبه علماء العرب الى الأمراض النفسية وآثرها على الصحة العامة وحاولوا رفع معنوية المريض واعادة الثقة لنفسه واخراج الأوهام التى تعتريه • وكتب ابن الهيثم عن أثر الموسيقى في الأمراض النفسية والعصبية وقد قالت سيكردهونكه : (ولنا أن نذكر نظرة الغرب الى هؤلاء المرضى المساكين خلال القرون الوسطى فنرى هولا وبشاعة بالغين منبعثهما الاعتقاد السائد آنذاك والذى غذته الدعاوات الدينية الخاطئة بأن المرض لعنة من السماء حلت بصاحبها عقابا له عن اثم زعموا أنه ارتكبه وأن شيطانا دخل في نفسه فحلل عذابه • وأصبح علاج الفرنجة يتركز على طرد الشياطين من الأجسام العليلة وكم كانت هناك من حالات خطرة استبد الشيطان بصاحبها ولزم طرده شر طردة وبأى وسيلة من

الوسائل) . (فكان هؤلاء البشر المعذبون يوضعون في سجون مظلمة وقد قيدت أيديهم وأرجلهم أو يعزلون عن العالم وعن أهلهم في (المستشفى السجن) أو (البيت العجيب) أو برج المجانين أو القفص العجيب كما كانوا يسمونها آنذاك ويسلم أمرهم الى رجال أفظاظ لايعرفون الا لغة الضرب والشتم والتعذيب وذلك مدى الحياة) ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .

أما الكنيسة فقد كانت تطارده وتعامله معاملة غير كريمة وتبعده بالصلوات والدعوات والقداديس والتعاويذ. وقد روى لنا أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) نماذج من طبهم تضحك المهموم الحزين .

فهل تنسي ألانسانية فضل العرب عندما عد الطب العربي المريض انسانا يجب رعايته والعناية به وأنه انسان يجب أن يعامل بالأصول البشرية .

وقد أسدل ستار النسيان على الحضارة العربية وتناساها الغرب ونسيها أبناؤها لما اعتورهم من تأخر عقلي وانحطاط اجتماعي وإنحدار سياسي . ولست ألوم الغرب وشعوبه وأمريكا وحكومتها على الجهل المستحوذ عليهم وعدم معرفتهم بحضارة العرب وتراثهم الاسلامي لأن الشعوب القوية تفرض ارادتها على الدنيا وتلفت نظر العالم الى مكانتها وشخصيتها. ولما أصبحت الحضارة العربيةجزءا من حضارة الغرب لم يدرك أثر حضارة العرب في حضارته لأنها أصبحت جزءا منها وسارت فيمسار بها وعمق مسراها ، اضافة الىآن الغربحال دون التعرف على هذه المسارب والآثار ورسم للاسلام والعرب أبشع الصور وأسوأ المظاهر ونعتهم بالتاخر والشر والفساد حتى لا يعرف أبناء الشعب الغربي الدين الكبير الذى يدينون به لحضارة العرب .

وقد ساعدت حوادث المشرق وتأخره وانحطاطه في تأكيد ذات الغربي المستعلي الذى يرفض أن يكون مدينا للشعوب المتأخرة فقد تملكته زهوة الفتح ونشوة التطور العلمي ، فما رأى لسواه فضلا ورفض كل حضارة وفكر سوى حضارته وعلمه وهو منطق القوة ولسان السيف في اثبات الذات العالي والقدرة بين البشر . وسرت هذه الروح الاستعلائية الى نصرانيته ، حيث رفض العقل الغربي القبول حتى بشرقيتها .

الطب والعرب :

عاش الغرب على كتب العربية فى الطب حتى القرن الخامس عشر حين كانت كتب الرازى وابن سيناء والزهراوى منهل العلم والأطباء لقرون طويلة وترجمت الى عدة لغات أما رسالة الرازى في الجدرى فقد ترجمت الى اللاتينية في مدينة البندقية ١٥٦٥ م ومنها ترجمت الى اللغات الغربية الأخرى واعتمد الطبيب الغربى بخلاصة علمه فى الطب على كتاب (الحاوى) للرازى الذى ترجم الى اللاتينية سنة ١٢٧٩ وذكر أحمد بديع المغربى بأن صورة الرازى ماتزال معلقة فى كلية الطب فى باريس ومع صورة الرازى فى الكلية نفسها صورة لابن سيناء صاحب كتاب الشفاء الذى صنف فى مختلف العلوم والفنون ومنها (القانون فى الطب) والصحة والصيدلة ووظائف الأعضاء والعلاج (١) وبقى كتاب ابن سيناء هذا يستفيد منه الغرب حتى القرن السابع عشر (وربما لم يدرس كتاب فى الطب على مر العصور كما درس هذا الكتاب وقد بلغ الطب الاسلامى عن طريق ابن سيناء

---

(١) قصة الحضارة ٢٤٧ مآثر العرب ص ١٣٢ .

عميد الأطباء) مرحلة عالمية (١) ·

وقد طبع القانون في الطب عدة طبعات وترجم جزء منه الى الانكليزية ·

وقد قال عنه أوسلر Osler في كتابه تطور الطب الحديث أن كتاب ابن سيناء بقى انجيل الطب وكان الزهراوى الجراح العربى الكبير صاحب (التصريف لمن عجز عن التاليف) مخلصا لعلمه متقنا لمهنته بارعا فى طبه وقد قال عنه الدكتور عبد اللطيف البدرى : (بأن معلوماته ووسائله وآلاته أساس الجراحة الحديثة وهو أول من فصل الجراحة عن الطب الباطنى وأول من خاط الأعضاء بخيوط مصنوعة من الأمعاء وأول من بتر بين باطين وأول من أوصى بجعل الأطراف السفلى أعلى من الرأس عند اجراء العمليات فى البطن) (٢) ·

ومن تتبع علم الطب يقف مدهوشا من تقدمه على يد العرب فى استعمال الكاويات وتفتيت الحصاة فى المرارة وضرورة تشريح الأحياء وقد وصلتنا صور الآلات الجراحية الدقيقة التى استخدمها العرب وصوروها حسب مقتضى المرض والعلاج وخصت كل آلة بعمل ، وفى مقالة للزميل الدكتور البدرى أشياء طريفة عن الآلات الجراحية من مبارد ومشارط ومكابس ومباضع فقد أعدت من مختلف المعادن ويكفى العرب فخرا مابقى من الأسماء الطبية فى اللغات الغربية كالكحول والصداع Soda وقد سجل الاستاذ (ويسلر) فى كتابه الحضارة العربية الكلمات العربية التى دخلت اللغات الأجنبية ·

---

(١) تراث الاسلام مايرهوف ٣٢٩ ، ٣٣٠ مآثر العرب ص ١٣٢ ·

(٢) مجلة للمجمع العلمى العراقى مقالة للدكتور عبد اللطيف البدرى ·

وللعرب فضل على الطب باستعمالهم المخدر عند اجراء العمليات الجراحية · ولاتختلف اساليب فحص المريض عن أساليب العصر الحديث وقد علموا الغرب التعقيم الذى تركوه ثم عادوا اليه بعد ذلك ، وقد فكر الرازى بالمرضى الذين يشكون من حساسية مرهفة ويعجزون عن تناول الأدوية فغلف حبوب الدواء بالسكر ومزج الأدوية بعصير الفاكهة والعسل ·

وقد كان العرب يستعملون التطعيم ضد الجدرى منذ العصور القديمة عن طريق فتح جرح فى المكان البض الكائن بين الابهام والسبابة فقد ذكر ويسلر وهونكه أن ابن رشد اكتشف (المناعة التى يتركها داء الجدرى الأسود لدى اصابته الأولى مدى الحياة بينما يصور الامبراطور ماكسيميليان بأن الجدرى وسيلة من وسائل الله لتهذيب البشر وعن طريقه نعرف عذاب الله ومن يؤمنون ومن لايؤمنون بهذا منهم كفار) ولم يدخل التطعيم ضد الجدرى الا فى القرن الثامن عشر فى أوربا متتبعا الأسلوب العربى نفسه الذى اتبعه العرب قبل مائتى سنة بالتلقيح بواسطة الجراثيم الضعيفة وخلق المناعة صناعيا ·

وقد بقيت رسالة الرازى فى الحصبة مرجعا للغرب فقد كتبها بعد ملاحظات دقيقة عن المرض وتطوره · وهو الذى فرق بين مرض النقرس الذى يصيب الأطراف وبين الروماتيزم ·

العدوى :

وبالرغم من أن اكتشاف الميكروبات والجراثيم لم يتم الا متأخرا فقد عرف العرب بأن العدوى تأتى من التراب والماء والملابس ورأى الطبيب العربى بأن العدوى تنتقل من المريض

الى السليم ولما نشر محمد بن الخطيب رسالته فى الطاعون أظهر أثر العدوى فى انتشار الطاعون التى تأتى من ملابس المريض ومن فضلاته وأدواته التى يستعملها ونادى بضرورة الحجر الصحى على الغرباء الذين يفدون من المناطق الموبوءة ٠

فى الوقت الذى يظن الغربى بأن الطاعون يأتى من التقاء الكواكب ومن يقف مباشرة فى محيط تأثيرها يقع صريعا فى براثن الطاعون المميت فهو نتيجة الأجرام السماوية وهو ناتج من غضب الله وليس لديهم من مكافحة لهذا المرض غير اقامة الصلوات وتطر البخور والطريف (أن أستاذا فى جامعة مونبلييه عام ١٣٤٨) وهو عام انتشر فيه الطاعون انتشارا فاحشا ومخيفا جاء بنظرية تقول : ان نظر المريض هو المسؤول عن انتشار الطاعون وبالتالى فقد نصح الطبيب أو الكاهن أن يطلب من المريض اغماض عينيه ووضع خرقة عليهما قبل أن يعمد الى معاينته ٠

وهى نفس السنة التى أخذ فيها الطبيب العربى ابن الخطيب يذكر أساليب انتقال المرض ويرد على المعترضين باسم الدين فقال : (فان قيل كيف نسلم بدعوى العدوى وقد رد الشرع بنفى ذلك قلنا لقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواردة هذه مواد البرهان ثم انه غير خفى على من نظر فى هذا الأمر أن من يخالط المصاب بهذا المرض يهلك ويسلم من لا يخالطه) ٠

المشافى :

وهل تنسى الأمة البشرية المؤسسات الطبية الكبيرة التى أنشأها العرب لرعاية المرضى فى أرجاء المعمورة فلاتكاد حاضرة تخلو من مستشفى مثل بغداد والقاهرة وتونس

ومراكش والرباط وأرجاء الأندلس وتنظيم هذه المشافي والسير بها على أساليب علمية وطبية وادارية دقيقة والعمل على مداواة المرضى ومعالجتهم بنظـام ممتاز واختصاص كل مرض بمستشفى خاص به وعـزل المرضى بأمـراض سارية بمؤسسة خاصة بهم لحمـاية السليم وتركيز التـداوى .. ووضع مستشفى خاص بالمصابين بالأمراض العقلية وأخرى للمجذومين والعميـان والأيتـام والنسـاء ، ولم تقتـصر المستشفيات على البناية المستقرة فقد كانت هناك وحدات متنقلة تداوى المرضى وتعطيهم الأدوية والعقاقير اللازمة لكل مرض .

ولكل مستشفى أقسام متنوعة وقاعـات معدة لأنواع الأمراض امتـازت كل قاعة أو جنـاح بالدقـة فى التنظيم والنظافة والاتقان بالعمل . وقد كان كل المرضى من الأغنياء أو الفقراء يعالجون بدون مقابل ويعطى للمريض الذى يترك المستشفى مبلغ من المال يعينه على حياته الجديدة . وكانت المشافى مضرب المثل بالرفاهية وحسن العناية وكريم الرعاية . ومن طريف ماأوردته هونكه أن المريض كان يريد أن يبقى أكبر وقت ممكن فى المستشفى بل كان السليم يشتاق أن ينام فيها . وروت أن رجلا نبيلا من نبلاء فارس جاء مرة لزيارة مستشفى النورى فى دمشق وكانت له دومـا شـهوة قوية متجددة للأكل ولدى زيارته هذه فاحت رائحة الشواء أمامه فعلأت منخريه وسـال لعـابه وود فى ذات نفسه أن يصبح بأسرع ما يمكنه مريضا عليلا فدخل المستشفى وأنينه يملأ الجو فعاينه الطبيب طويلا دون أن يجد فيه علة فطرح عليه بعض الأسئلة وأيقن أنه أمام جشع نهم علته فى بطنه فلم يقل له أية كلمة الماخوله الى قسم الأمراض الباطنية ووصف

له الطبيب هناك شيئا من العسل مع كبد الطيور والكمأ المقلى وقليـلا من المربيـات والليمون وكل أنواع الحلوى المسيلة للعاب وذلك مرتين فى اليوم ولم تكد تمضى ثلاثة أيام حتى ضعفت مقاومة المريض وأصبحت معدته فى خطر عندئذ قال له الطبيب : (لقد تمتعت ياصاحبى بالضيافة العربية أياما ثلاثة فاذهب الآن فى سلام الله ..) .

وقد كانت الجراحة متقدمة فقد أجرى الجراح العربى عدة عمليات ناجحـة فى الوقت الذى كانت أوروبا تنظر للجـراح على أنه نجس ، لأن الجـراحة كان يزاولها الطبيب والقصاب (الجزار) ومن الطريف أن يستعمل الطب العربى الشحنات الكهربائية لمعالجة المرضى فى الوقت الذى لم يكن أديسون قد اكتشف الكهرباء فان ابن سيناء (استخدم السمك الرعاد (الكهربائى) فى مداواة الصرع والأمراض العصبية بوساطة وضع السمك فى الماء حتى يبقى حيا) لأنه اكتشف أنه إذا مات فقدت الخاصية الكهربائية .

كتب الطب :

وبقيت كتب الطب الاسلامى تدرس فى الجامعات الغربية ومن الطريف أن مكتبة كلية الطب فى جامعة باريس لم يكن فيها غير كتاب واحد هو كتاب الحـاوى للرازى فقد حـدثنا الدكتور شاكر مصطفى وهـونكه بأن الكتـاب كان مقيدا بسلسلة ضخمة كيلا يسرق فلما أراد ملك المسيحية الشهير لويس الحادى عشر استعارته للاسـتفادة منه فى معالجته هو وأسرته وأن تنسخ منه نسـخة عـودل بكميات من الذهب والفضـة من العملات الرائجـة آنذاك . وقد اعترف أهل باريس بقيمة هذا الكنز وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب اجمالا فأقاموا له تمثالا فى باحة القاعة الكبيرة فى مدرسة

الطب اضافة الى تعليق صورته وصور الرازى فى احدى قاعاتها الأخرى فى شارع سان جرمان ٠

ان كتب ابن سيناء وأبى اسحاق والزهراوى والرازى وابن زهر وحنين بن اسحاق هى المراجع التى اعتمد عليها العالم فى تدريس الطب والانتفاع بها فقد أصبح كتاب القانون لابن سيناء وحى الغرب فى الطب وقانونهم فى العمل وانجيلهم فى صدقه فقد امتاز بالمنهج العلمى حتى تفوق على جالينوس ٠

وقد حرر العرب الطب من الخرافات والصلوات والبخور ومن قيود رجال الدين فى الغرب وفتحوا أمام الفكر الغربى مغاليق الحياة وأبواب التطور والتقدم فقد كان القانون من أول الكتب التى اعتمدوا عليها فى بدء النهضة الغربية الحديثة فقد ظهر فى ميلانو مترجما سنة ١٤٧٩ وطبع بعد سنين مع المنصورى والحاوى والكليات وايساغوجى حنين بن اسحاق والملكى أو كمال الصناعة الطبية لعلى بن العباس سنة ١٥٠٠ م ٠ وطبع القانون ست عشرة مرة ووصلت الى عشرين طبعة حتى القرن السابع عشر مع شروح وتعليقات كثيرة ٠

وقد كان الكتاب الملكى شاملا لعلوم الطب وكان خير هدية منحت لأطباء العالم ولم يسبق أن احتفى به الأطباء من قبل وأعطى الزهراوى الأندلسى فى كتابه (التعريف لمن عجز عن التأليف) خلاصة تجاربه فى الجراحة فهو الذى أسس الجراحة فى الغرب وبقى من أهم مراجع الأطباء فى الجراحة وآخر طباعته سنة ١٧٧٨ م فى آكسفورد ٠

أما ابن زهر الأشبيلى فقد ألف (التيسير فى المداواة والتدبير) وضاهى الرازى فى مكانته وفضله ، وأما ابن رشد فله كتاب الكليات فى الطب ، وكتب حنين بن اسحاق وكتاب

الأصـول لابن رضـوان و (تقويم الأبدان) لابن جزلة وهو تصنيفه فى الأمراض وتقويم الصحاح لابن بطلان وأثرالمناخ والتغذية والحركة والنوم وزاد المسافر عن أسباب المرض لابن الجزار القيروانى ٠

ومن طـرائف الكتب ان أحـد علماء الغـرب الدكتور هارثمان شيدل كان كلفا بالكتاب الملكى لعلى بن العباس ولم يكن يقدر الحصول عليه فى تونبرك وشاءت الصدف أن يتلقى فى سنة ١٤٩٣ رسالة من الشاب (هولز شـوهر) يخبره بالحصول على نسخة من الكتاب فكان مسرورا به فقد حصل عليـه مترجما الى اللاتينية ومطبوعا فى البندقيـة وأخبر صديقا له كان أشد اعجابا بالكتاب هو (مونتسر) ففرح به فرحا شديدا وكان تقديره للشاب كبيرا الى حـد أنه زوجه ابنته الوحيدة (دوروثيا) وقد خلد هذا الرسام دور القصة بلوحة من رسمه وقد أصبح الزوج عمدة لنونبرك فيما بعد ٠

الدورة الدموية :

وحديث الدورة الدموية التى باهى الغرب بأن مكتشفها ولتيم هارفى تغير فقد اعترف أبناء الغـرب أنفسـهم ومنهم الكاتبة الفاضلة هونكه ان أول من نفـذ ببصره الى أخطاء جالينوس ونقدها وجـاء بنظرية الدورة الدمـوية لم يكن سارنيثوس الأسـبانى ولاهارفى الانكليزى بل كان رجـلا عربيا أصيلا من القرن الثالث عشر الميلادى وهو ابن النفيس ـ اكتشفها قبل هارفى بأربعة قرون ٠

وقد كان رجال الغرب يمنعون مرضاهم من الاستفادة من الطب العربى والأطباء العرب الكفار غير أن الشعب كان يفضل (الذهاب الى جانب الأعداء للتداوى بالرغم من زجـر

الكهنة لهم وتحريم الكهنة فلم يكن ينفع فى هذا المجال لا وعيد ولا تهديد وكثيرا ماردد رجال الكنيسة على أسماع الناس كلمات بهذا المعنى : تحت شعار طبهم وعلاجهم للجروح وعقاقيرهم يخبيء أطباء الكفر للمسيحيين خبثا ومكرا لالحاق الضرر بهم وقتلهم غيلة) ٠

وقد حاول الغربيون تجاهل الأمر ولكن الحقيقة غلبت ٠ وبدأ الغرب الاهتمام به وترجمت آثاره ٠ ولم تجر أول عملية جراحية الا بعد وفاة ابن النفيس بمائتى سنة وهو الذى اعتمد على الملاحظة الفردية والدقة العلمية وقد ناقشها الدكتور غليونجى فى كتابه (ابن النفيس) (١) وقارن بين نظريته والرأى السائد قبله عند ابن سيناء وجالينوس وأنه (اهتدى الى العلم بأن اتجاه الدم ثابت وأنه يمر من التجويف الأيمن الى الرئة حيث يخالط الهواء ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدى الى التجويف الأيسر) ص ١٢٥ ٠ ولم يبعد ابن النفيس كثيرا عن الحقيقة عندما قال : (ان الدم يمر من مسام بين العرقين أو من منافذ محسوسة هى بمثابة الأوعية الشعرية) ٠

وهذا الرأى قال به قبل اكتشاف العدسة المكبرة أو قبل أن يتحدث ماليبجى عن الأوعية الشعرية ص ١٢٦ ٠

---

(١) كان للطبيب المصرى حى الدين التطاوى فضل اكتشاف ذلك فقد قام بتقديم رسالة لنيل الدكتوراه فى المانية موضوعها (الدورة الرئوية تبعا للقرشى) ولم يصدقه أساتذته لكن مايرهوف كان فى القاهرة وأيد ذلك لأنه يعرف العربية وعلم المؤرخ جورج سارتون بذلك فنشره (ابن النفيس بول غليونجى ص ٧٠) ٠

الفصل الرابع

توحيد المصطلح العلمي في الأقطار العربية

توحيد المصطلح العلمي في الأقطار العربية

مقدمة :

لغة الأمة سجل حضارتها وفكرها وثقافتها ، وعلى اتساع اللغة ومرونتها تتطور الحضارة وتتقدم الامم في معارج الرقي والتفوق العلمي . وقد مرت اللغة العربية بعد ازدهارها بدون سبات طويل جمدت مفرداتها وتحجرت أساليبها ، حتى تسربت النهضة في كيانها وجرت تيارات الاحياء والتجديد في عروقها . فأخذت تنمو وتزدهر وبدأ المختصون بدراسة مفرداتها وفهم مشكلات جمودها لحل العقبات التي اعتورتها وعاقتها عن التطور والتجديد والابداع ، وكثر عقد المؤتمرات وازدادت الندوات للاسراع في تجديد شبابها وتطويرها وتطويعها لمتطلبات العصر الحديث . وأعان على الدراسة والتطوير رغبة نخبة طيبة مخلصة في أرجاء الوطن العربي كانت أقطارهم تدرس العلوم المختلفة بلغات اجنبية كالفرنسية والانكليزية والايطالية والاسبانية ووصلت نسبة التدريس في بعضها الى ٩٠ بالمئة من المناهج تخطيطا من الاجنبي للقضاء على اللغة العربية واحلال لغة المستعمر في البلاد لان تغريب العرب

(★) قدم في مؤتمر تعريب التعليم العالي ـ الوطن العربي ونشر في مجلة المجمع العلمي العراقي في المجلد الثلاثين ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

لغة سيقتل الوعي القومي ويميت التراث الاسلامي وبذلك يسهل ضم العرب فكريا الى الغرب لأن موت الوعي واندثار التراث يهون على المتعلم ترك الذات القومية والروح الوطنية والاندماج في حضارة المستعمر ونسيان الماضي العربي .

وقد وقف بعض أبناء العرب الذين ضاعت شخصياتهم واهتز فكرهم وماتت روحهم القومية ضد التعريب زاعمين بأن اللغة العربية تضيق عن استيعاب المصطلحات الغربية الجديدة التي وضعت في العلوم والفنون الحديثة للاختراعات والمكتشفات والنظريات الفكرية التي تتزايد كل يوم ، لانهم لم يطلعوا على مسيرة اللغة العربية ويدرسوا مصطلحاتها التي وسعت في الماضي كل المصطلحات والآراء والنظريات التي عاصرتها ووصفت أدق الأمور وأصغر الأشياء في الطب والهندسة والفلسفة والفلك .

توحيد المصطلح :

وهذه اللغات المعاصرة المختلفة استوعبت مصطلحات العلوم والفنون التي وضعت في اللغات الأخرى لأن الاختراعات والاكتشافات لم تكن محدودة بقطر أو وقفا على أمة من الأمم بعد أن أصبحت الحضارة ملك الانسانية كلها ويمكن أن يستعير منها من شاء ويأخذ من ينبوعها من يريد .

والعربية في قديمها خير مثال على قابلية فذة ومرونة عجيبة في استيعاب ثقافات الأمم التي عاصرتها كالهند واليونان وفارس وقد برهن العرب اليوم على قابلية كبيرة في ترجمة العلوم الحديثة واستيعاب النظريات الغربية حيث أصدرت المجامع العلمية عدة معجمات في العلوم والفنون ،

ولابد لنا ونحن في دور تعريب العلوم الأجنبية أن نوحد المصطلح الحديث في أقطارنا لان التوحيد ضرورة وطنية ملحة فاستقلال كل قطر بالعمل على وضع المصطلح سوف يخلق عدة لغات ويدخل الى اللغة العربية بلبلة فكرية يمكن أن يجدها الانسان في الاختلافات الموجودة اليوم في اللغة المحلية فعلى سبيل الحصر نقارن بين ثلاثة أقطار عربية وسنجد الاختلاف البين بين المصطلحات هي : ـ

المصطلح في ليبيا	المصطلح في العراق	المصطلح في مصر
كاشيك	خاشوكة	معلقة
كوشه	مخبز	فرن
زرعينة	حب	لب
كاكاوية	فستق العبيد	فول سوداني
حكية	قوطية	علبة
كشفيته	بلايز	مفك
شماعى	بلكات	بوجيهات

وغيرها كثير ومن الطريف أن قال لي أحد اخواننا في ليبيا :

الأكحل زاط : فلم أفهم ماهو الأكحل الذى زاط وأخيرا فهمت أنه يريد أن يقول ان الحبر انسكب • ودخل سورى على صديق له في ليبيا وكان يشرب الشاى فقال له : (قعمز) فقال له أشكرك فقد شربت الشاى فقد أراد الليبي أن يقول له تفضل اجلس فأذا كان هذا هو الحال باللغة العامية فكيف يكون المصطلح العلمي اذا وضعت له ألفاظ غربية مختلفة ؟

المصطلح في الاسلام :

ولما ظهر الدين الاسلامي احتاج الى مصطلحات جديدة لتحديد المفاهيم الحديثة ولسن المبادىء الرئيسية ولوضع الأحكام العامة والقواعد الأساسية • فقد اختلفت الأحكام الاسلامية عما ألفه العرب من أعراف وعادات وتقاليد قبلية فلابد من وجود مصطلحات توضح سلوك المسلم وتحدد أسلوب عبادته وما له وما عليه من واجبات للسير في أساليب جديدة في الادارة والمال والدين عربي النشأة فأخذت المصطلحات من اللغة العربية فوضع الشارع بعض الألفاظ والتعابير وحدد لها المعاني التي تلائمها وقد حافظت على ماوضعت له ونسي أصلها الذي أخذت منه مثل :

الزكاة : ــ ومعناها تمام الشيء وقد كان المراد من التزكية قطع الأوداج لانهار الدم •

الصلاة : ــ أصلها الدعاء ثم أطلقت على شعائر وطقوس محددة كالركوع والسجود وما هو معروف عن الصلاة والعبادة •

العبادة : ــ أصلها الخضوع والتذلل •

الظلم : ــ وضع الشيء في غير موضعه فأصبحت تعني جور الحاكم وطغيان الأمير والسلطة وايذاء الناس •

الحج : ــ معنى الكلمة القصد ، ثم حدد لها معنى الذهاب الى مكة المكرمة واجراء المناسك المعروفة في البيت الحرام •

الكفر : ــ معناه التغطية فقوله : أعجب الكفار نباته أي الزرع لتغطيتهم البذور في الأرض والستر •

الفتنة : ــ معناها : الامتحان والاختبار ومنها اختبار الفضة بالنار •

الفطر : ـ معنى الكلمة الشق ومنه : وهل ترى من فطور فأصبح يعنى تناول الطعام والشراب .

الكظم : ـ من كظم القربة ، وهو الخيط يشد به فم القربة فأصبح كظم الانسان غيظه مثل كظم القربة أى منعها من التبدد وفى (المتوكلى) للسيوطى كثير من هذه المصطلحات أخذت هذا القدر للتمثيل لا الحصر (*) .

وقال ابن فارس في فقه اللغة من هذه المعاني والمصطلحات الجديدة مما جاء فى الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وان العرب انما عرفت المؤمن من الأمان والايمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها تعنى المؤمن بالاطلاق مؤمنا . وكذلك الاسلام والمسلم انما عرفت منه أسلام الشيء ثم جاء فى الشرع من أوصافه ماجاء ، وكذلك كانت لاتعرف الكفر الا الغطاء والتستر ، فأما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروا وكان الأصل نافقاء اليربوع (١) ولم يعرف الفسق الا قولهم فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها وجاء الشرع فقال بأن الفسق الافحاش فى الخروج عن طاعة الله .

وبذلك فالقرآن الكريم أول من وضع المصطلحات للعرب وحدد معانيها لها . وقد حملت اللغة العربية حضارة العرب القديمة قبل الاسلام وكانت هذه الحضارة شديدة الاتصال بجيرانها من الأحباش والفرس والهنود وبحكم الجوار وتبادل المعاملات المختلفة كانت تجود على هذه اللغات بمصطلحاتها وكانت تأخذ منهم ماكانت تحتاج اليه مما وضعوه لحاجاتهم وأغراضهم لاتساع آفاقها ومرونة مستعمليها ولأن هذه

(*) المتوكلى ـ جلال الدين السيوطى .

(١) نافقاء اليربوع : جحره يكتمها ويظهر غيرها .

اللغات فى أكثرها من أصل واحد أو أصل متقارب . وقد أحس العرب بوجود هذه المصطلحات فى لغتهم فكان تعليلهم كما فى (الصاحبى) لابن فارس :

"وزعم أهل العربية أن القرآن الكريم ليس فيه من كلام العجم شيء وانه كله عربى يتأولون قوله جل ثناؤه «انا جعلناه قرآنا عربيا» وكقوله «بلسان عربى مبين» قال أبو عبيد والصواب من ذلك عندى ـ والله أعلم ـ مذهب فيه تصديق القولين جميعا ، وذلك أن هذه الحروف وأصولها عجمية كما قال الفقهاء الا أنها سقطت الى العرب فأعربتها بألسنتها وحالتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال أنها عربية فهو صادق ، ومن قال عجمية فهو صادق (١) .

وقد أحصى جلال الدين السيوطى فى (المتوكلى) الكلمات التى وجدها أجنبية ودخلت فى القرآن الكريم من الحبشية والفارسية والرومية والهندية والتركية والقبطية والسريانية والعبرانية والبربرية وسجلها ومن هذه الكلمات يعرف الدارس المرونة العجيبة والقابلية الرائعة فى اللغة العربية فى تعريب المصطلح والاستفادة التامة منه لتصبح هذه المصطلحات الأجنبية جزءا منها سارت على النسق العربى فى الأسلوب والذوق . ونختار منها مايلى :

١ ـ من الحبشية : الجبت ، وطه ومعناها يارجل ، ومشكاة ومعناها الكوة والأرائك ومعناها السرر .

٢ ـ الفارسية : الاستبرق : الديباج الغليظ ، وأباريق ومقاليد وجهنم وسرادق وسلسبيل .

---

(١) فقه اللغة العربية ونموها واكتمالها ص ٣٦ تأليف الكربلى .

٣ ـ الرومية : صرهن : قطعهن ، ومنها الفردوس : البستان والقسطاس : الميزان ، والصراط : الطريق ·

٤ ـ الهندية : طوبى : اسم الجنة ، والسندس : الديباج الرقيق ·

٥ ـ السريانية : الطور : الجبل وهونا : حلماء ، ولات حين مناص : ليس حين مناص ·

٦ ـ العبرانية : المرقوم : المكتوب ، والرمز : تحريك الشفتين ، واليم : البحر ·

٧ ـ النبطية : الاسفار : الكتب ، الحواريون الغسالون للثياب ، الأكواب جرار ليس لها عرى ·

٨ ـ القبطية : متكأ والاترج ، ومزجاة : قليلة ·

٩ ـ الزنجية : حصب جهنم : حطبها ، المنسأة العصا وكذلك في الحبشية ·

١٠ ـ البربرية المهل ، عكر الزيت ، ومن عين آنية : جارية ، ابا : الحشيش ·

القنطار ألف مثقال · وبذلك اعتمد العرب أول اعتمادهم على لغتهم ولم يجدوا بأسا من الأخذ من المصطلحات الأجنبية لسعة رقعة أرض العرب التي كانت تحدها عدة لغات وتختلط بعدة أقوام وممالك · ولما بدأت حركة الترجمة تأخذ مجراها وأراد العرب الاستفادة من حضارة الأمم وبدأوا يفتحون الأقطار المجاورة اتسعت مداركهم وأصبحت لغة الصحراء المحدودة بحاجة الى الاحاطة بالاثاث المترف والادوات الجديدة وآلات العيش التي لم يرها العربي من قبل فقد شاهد أمورا جديدة لم تخطر بباله ولا جوابها خياله

الخصيب من العيش الرغيد والنعمة الفارهة والحضارات القديمة فبدأ في الترجمة وكان أمينا فقد . جاء في الفهرست (١) .

(قال أحمد بن عبد الله بن سلام ترجمت صدر هذا الكتاب والصحف والتوراة والانجيل وكتب الأنبياء والتلامذة من اللغة العبرانية واليونانية والصابئية وهي لغة أهل كل كتاب الى اللغة العربية حرفا حرفا ولم أبتغ في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه ، مخافة التحريف ولم أزد على ماوجدته في الكتاب الذى نقلته ولم انقص الا أن يكون فى بعض ذلك من الكلام ماهو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب فلايستقيم لفظه فى النقل الى العربية الا أن يؤخر ومنه ماهو مؤخر لايستقيم الا أن يقدم ليستقيم ذلك بالعربية . وهو مثل قول من يقول : آت ما يم تان ترجمته بالعربية ماء هات فأخرت الماء وقدمت هات وكذلك اللغات فيما يستقيم اذا نقل الى العربية وأعوذ بالله أن أزيد فى ذلك أو أنقص منه الا على هذا الوجه الذى ذكرته وبينته فى هذا الكتاب) . وبذلك فالعربي تحرى الدقة والأمانة الا ماخالف ذوقه الأصيل وأسلوبه العربى فقد اقتضت العربية أن يقدم الفعل على الفاعل لأن ذوقه السليم وفطرته الصافية أبت عليه هذا الأسلوب الأعجمى .

ولابد من تطور الحياة العربية بالتعرف على العلوم والآداب الاجنبية فأخذت حركة الترجمة تنشط نشاطا ملحوظا ولو تتبعنا هذه الحركة لوجدناها بدأت بالعصر الأموى وبرز اسم خالد بن يزيد فى عالمها بعد أن حرم من الحكم وبخاصة في علوم الكيمياء ولأنه أراد أن يعوض فى دراسة العلوم وانصرافه اليها ماحرمه من جاه السلطان وسطوة الملك

---

(١) الفهرست ص ٣٢ .

وأذكت هذه الرغبة عنايته صغيرا بها حتى انه وضع بعض الكتب في الكيمياء ولعل الرموز التي ذكرها خالد أول الرموز في الكيمياء • وقد شجع مروان بن الحكم على النقل من اللغات الأجنبية وعبد الملك بن مروان عندما أمر بتعريب الدواوين من اللغات التي تكتب بها وللأسف الشديد لم نقدر على العثور على ما ترجم في العصر الأموي فقد اندرس ولعل الأيام تسعدنا يوما بها فتعرف المصطلحات العلمية والادارية والمالية التي وضعها العربي لمقابلة المصطلحات اليونانية والفارسية والقبطية في لغة الدواوين قبل التعريب •

والعصر العباسي أزهى عصور الترجمة فقد بدأت بأبي جعفر المنصور ثم الرشيد والمأمون وبانشاء بيت الحكمة والاهتمام بالكتب العلمية في الطب أكثر من سواها • وفي هذا العصر أصبحت الدولة راعية للترجمة وخصصت لها المبالغ المجزية مع العلماء والمترجمين الذين عكفوا على النقل وجلب الكتب من أصقاع المعمورة مستفيدين من السريان الذين يعرفون اللغة العربية واللغات الأجنبية كاليونانية والفارسية •

ان الحضارة العربية الجديدة التي ازدهرت وأخذت تنمو سريعا باحتكاكها بالحضارات المختلفة احتاجت لوضع مصطلحات جديدة تقابل المصطلحات الأجنبية •وفي هذا الدور بدأت الفلسفة والعلوم والفنون تظهر بأشكال متنوعة وأصبح لكل فن أصحابه كالأطباء والفلكيين ، والمهندسين والمناطقة والفلاسفة والمتصوفة • لأن مصطلحات الفقه الاسلامي والأدب العربي قد توطدت قبلها • ومن يقرأ الكتب التي جمعت المصطلحات العلمية والادبية يعجب من سعة العربية وقابليتها المرنة في استيعاب كل هذه العلوم والفنون ، ومن

الكتب التي ألفت في المصطلحات العربية أو جاءت على ذكر المصطلحات (المتوكلي) للسيوطي و (الفهرست) لابن النديم و (التعريفات) للجرجاني و (مفاتيح العلوم) للخوارزمي و (شفاء الغليل) للخفاجي و (المعرب) للجواليقي و (كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي (والألفاظ الفارسية المعربة) لأدي شير و (سلس الغانيات في ذوات الطرفين من الكلمات) لنعمان خير الدين الالوسي ·

وسيجد الباحث اختلافا كبيرا في معاني المصطلحات التي وضعت في كل فن ولكل فن· وقدلاحظنا أن واضعي المصطلحات يشرحون أو يفسرون هذا المصطلح الجديد ليكون سهلا وواضحا في الذهن حتي لو كان المصطلح قد أخذ معناه اللغوي من اللغة العربية · فمن ذلك ماجاء في (مفاتيح العلوم) في التشريح ·

«الشرايين هي العروق النابضة وأحدها شريان ومنبتها من القلب تنتشر فيها الحرارة الغريزية الى الطبيعية وتجري فيها المهجة وهي دم القلب ·

أما العروق غير النوابض فمنبتها من الكبد ويجري فيها دم الكبد ·

ومن الشرايين الأبهران : وهما يخرجان من القلب ثم يتشعب منهما سائر الشرايين ومن العروق المشهورة غير الضوارب الباسليق وهو في اليد عند المرفق في الجانب الانسي الى مايلي الابط والقيفال عند المرفق أيضا في الجانب الوحشي والأكحل بين الباسليق والقيفال واسم الأكحل عربي ، أما الباسليق والقيفال فمعربان» (١) ·

(١) مفاتيح العلوم — للخوارزمي ·

وقد راعى واضع المصطلح الشبه الموجود بين المصطلح الطبى ومايشبهه فى الحياة العامة الظاهرة مثلا :

(طبقات العين سميت بالأشياء التى تشبهها كالمشيمة شبهت بالمشيمة وهى التى فيها الولد فى البطن . والشبكية شبهت بالشبكية ، والعنكبوتية شبهت بنسيج العنكبوت ، والقرنية شبهت بالقرن فى صلابته) .

ومن المصطلحات العربية التى وضع لها تفسير ليكون المصطلح محدوداً بشىء ذاته الشريان والوريد (العروق) . كما عرفوا :

الحنجرة : ـ هى العظم الناتىء فى العنق تحت اللحى وهى آلة الصوت .

والمعدة للانسان بمنزلة الكرش للشاة .

البواب : ـ معى متصل بالمعدة من أسفل ينضم عند دخول الطعام الى المعدة الى أن ينهضم فحينئذ ينفتح باذن الله تعالى وسمى لذلك بالبواب .

الاثنا عشرى : ـ متصل بالبواب طوله اثنتا عشرة صبعا .

المعى الصائم : ـ معى يلى الاثنى عشرى يسمى صائما لانه لايثبت فيه الطعام .

المرابض : مجارى الطعام والغذاء من المعدة الى الكبد .

القولون : هو المعى الذى يحدث فيه القولنج ومنه اشتق .

الأعور : معى على هيئة الكيس وسمى الأعور لأنه لا منفذ له ويسمى المعرغة .

ـ ويجد طلاب الطب الكثير من المصطلحات العلمية في الأمراض والأدواء مع وصفها سواء أكانت مشتقة من اللغة العربية أم مأخوذة من اللغات الأجنبية . ولاشك في أن الطب الحديث استفاد من هذه المصطلحات التي استعملت في مختلف العلوم الحديثة وقد أهمل بعضها وتنوسي ويقف الدارس معجبا بالعرب عندما يرى تشخيصهم ووصفهم لبعض الأمراض ووضع المصطلحات العربية لها ففي باب الأمراض نجد :

الشقيقة : صداع في شق واحد من الرأس .

الدوار : هو أن يكون كأنه يدور ماحوله وتظلم عينه ويهم بالسقوط يقال دير به يدار به دوارا .

السرسام : حمى دائمة مع صداع وثقل في الرأس والعين وحمرة فيها شديدة وكراهية للضوء .

السكتة : أن يكون الانسان ملقى كالنائم يغط من غير نوم ولا يحس اذا نخس يقال اسكت الرجل اسكاتا اذا أصابته سكتة .

الفالج : معروف وهو استرخاء أحد الجانبين من الانسان وقد فلج فلان ذهب الحس والحركة عن بعض أعضائه .

اللقوة : أن يتعوج وجه الانسان فلايقدر على تغميض احدى عينيه وقد لقى فهو ملقو .

المالنخوليا : ضرب من الجنون وهو ان تحدث للانسان أفكار رديئة ويغلبه الحزن والخوف وربما صرخ أو نطق الأفكار الردية وخلط في كلامه .

أمراض العيون :

وقد كان المصطلح العربي دقيقا دقة عجيبة فقد حدد

الأمراض ووصفها ووضع لكل مرض من أمـراض العيون مصطلحا خاصا بهذا المرض كيلا يختلط بغيره من الأمراض ومن تلك المصطلحات :

الطرفة : أن تحدث فى العين نقطة حمراء من ضربة أو غيرها ٠

الانتشار : اتساع ثقب الناظر حين يلحق البياض من كل جانب من ضربة أو عقب صداع شديد ؛

الغرب : هو أن يرشح ماقى العين ويسيل منها اذا غمز صديد وهو الناصور أيضا وربما يكون الناصور فى موضع آخر ٠

تطور المصطلح :

وقد وجدت الطبيب العربى قد شخص الأمراض ووضع لها المصطلحات العلمية التى ماتزال متداولة حتى هذا اليوم مثل السرطان وذات الرئة وذات الجنب والهيضة والاستسقاء وسلس البول والبواسير وعرق النساء والدوالى وداء الفيل وفى الهضم الكليوس والكيموس ٠ وعندما بدأ العرب فى نقل العلوم من اللغات الأجنبية أخذوا المصطلح كما جاء فى لغته الأصلية ولاسيما اليونانية لأن الذين ترجموا لم يكونوا من الأدباء أو من علمـاء اللغة العربية ليكونـوا على دراية باللغة ولهم ذوق عربى أصيل فلما جاء اللغويون وأصـحاب الذوق الأصيل وجدناهم يضعون للمصطلحات اسماء عربية أصيلة تناسب الذوق العربى فقد جاء فى (مفاتيح العلوم) ايساغوجى وهو باليونانية لوغيا وبالسريانية (مليلوثا) وفى العربية (المنطق) ومن تلك الكلمات :

انولوطيقا : هذا الكتاب يسمى باليونانية ومعناه العكس

لأنه يذكر فيه قلب المقدمات وما ينعكس منها وما لاينعكس .

طوبيقى : اسم هذا الكتاب المواضع ، أى مواضع القول يذكر فيه الجدل ، ومعنى الجدل تقرير الخصم على ما يدعيه حقيا كان أو باطلا ، أو من حيث لا يقـــدر الخصـــم أن يعانده لاشتهار مذهبه ورأيه فيه ، لأنه يزرى على مذهبه ورأيه فيه .

ريطوريقى : ومعناه الخطابة ، يتكلم فيه عن الأشـياء المقنعة ، ومعنى الاقناع ان يعقل نفس السامع الشىء بقول يصدق به . وان لم يكن ببرهان .

بيوطيقى : ومعناه الشعر ، يتكلم فيه على التخيل ومعنى التحييل انهاض نفس السامع الى طلب الشىء أو الهرب منه ، وأن يصدق به التخييل أو التصور أو التمثل وما أشبهها .

وهذه المصطلحات التى استعملها المثقف العربى وتداولها المفكرون أول الأمر تركوهـا وكانت مرحلـة من مراحل الترجمة حتى تخلص الفكر العربى منها .

التصوف :

لما وضع الشارع المصطلحات القرآنية حدد لها مدلولا خاصا بهـا خرج عن معنـاها اللغوى الى ما حدده وبذلك فالمصطلح كلمة أو عبـارة أصطلح عليها فى فهم معنى من المعانى وتحديده . ولما جاء التصوف وجدناه يضع المصطلحات المألوفة والكلمات الواضحة لحالات من التصوف أو الوجد غير ما ألفه العرب وبذلك خرج المتصوفة من فهم المعنى الى رموز المعانى واشارات الألفاظ البعيدة كل البعد عن أصولها ومن أمثلـة مصطلحات التصوف ما ورد ملحقـا فى التعريفـات للشريف الجرجانى :

المسـافر : هو الذى سـافر بفكره فى المعقولات وهو الاعتبار فعبر من عدوة الدنيا الى عدوة القصوى ٠

السـفر : عبارة عن القلب اذا أخذ فى التوجه الى الحق تعالى بالذكر ٠

الطريق : عبارة عن مراسم الحق تعالى المشروعة التي لا رخصة فيها ٠

الأدب : يريدون به أدب الشريعة ، ووقت أدب الخدمة ، ووقت أدب الحق وأدب الشريعة الموقوف عند مرسومها ، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتهـا مع المبالغة فيهـا ، وأدب الحق أن تعرف ما لك وما له ، والاديب من أهل البساط ٠

العدل : والحق مخلوق به فعبارة عن أول موجود خلقه الله تعالى وهو قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) ٠

الذوق : أول مبادىء التجليات الالهية ٠

الورقاء : النفس الكلية وهو اللوح المحفوظ ٠

العقاب : القلم وهو العقل الأول ٠

الشجرة : الانسان الكامل (١) ٠

فأين هذه المصطلحات من الكلمـات التى خـرجت منها وما أبعدها عن معناها اللفظى وأصلها اللغوى وبذلك بعدت بعض المصطلحات عند جماعة من الناس عن صيغها ومعانيها وأصبحت مفهومة لهم وحدهم دون سائر البشر ٠

---

(١) التعريفات : للجرجانى ٠

كتاب الصيدنة :

وقد كتب العرب عدة كتب فى العلوم المختلفة منها الكثير من المصطلحات ومن هذه الكتب التى جمعت المصطلحات الطبية (الصيدنة فى الطب) لابى الريحـان البيرونى الذى لم تنل مصطلحاته العناية رغم وفرتها فيه ٠ ومن الطريف ان ينشط الى تحقيقه عالمان من علماء الهند ولما لم تتوفر المطبعة العربية كتبت النسخة مع تعليقاتها باليد ثم صورت ٠ وكنت أرجو أن تعنى كليتا الصيدلة والطب به ٠ لاستخراج المصطلحات التى تلائم العصر الحديث والتى استعملت قبل أكثر من ألف سنة أو تزيد بعد أن صدرت للكتاب طبعة أخرى (١) ٠

(وقد نبه البيرونى بأن الصـيدنة أعـرف من الصيدلة والصيدلانى أعرف من الصـيدنانى وهـو المحترف بجميع الأدوية على احمد صورها واختبار الأجود من أنواعها مفردة ومركبة على أفضل التراكيب التى خلدها مبرزو أهل الطب ٠٠٠) وبالرغـم من أن البيرونى ليس عـربيا الا أنه كان شديد الاعجاب باللغة العربية حتى قال :

(والهجو بالعربية أحب الى من المدح بالفارسية وسيعرف مصداق قولى ، من تأمل كتاب علم نقل الى الفارسى كيف ذهب رونقه وكسف باله ، واسود وجهه وزال الانتفاع به) وقد كان الرجل دقيق الملاحظة والوصف للأدوية ويذكر أسماءها باللغات المتداولة ورأى العلماء والأطبـاء بكل دوام ومن الأمثلة ٠

أيهل : هـو بالرومية (برتانون) وأيضـا (بروتون)

---

(١) الصيدنة تحقيق الحكيم محمد سعيد والدكتور الهى ص ٢١ وقد ظهرت نسـخة بتحقيق الدكتور حمارنة ٠

وبالسريانية (بروثا) وبالفارسية (برس) و (رس) لان الباء والواو فيها متقاربان ويتبادلان ، وبالهندية (اوهير) وقيل هو (بير) ثم قيل في (هوه) (انه حب الخروع وعربيته المحضة (عرعر ...) وهو أحمر الى السواد مدور في عظم النبقة أشبه شيء بالزعرور الأحمر دهين حاد الرائحة جدا ، أجاصي الجلدة عليه نتوءات منه كما تكون على العفص وعلى جوز السرو ... وقال جالينوس : بدله في المعجونات ضعفه من الدارصيني وقال : الرازى بدله في ادرار الطمث وافساد الأجنة ٠

آذربون : هي الحنوة في أرض العرب على ماقيل ، والشعراء يذكرون الحنوة كما يذكرون الاذريون فيوهم أنهما متغايران ، فآذريون من بين الزهر شديد الاشتهار ، وحصة العين أوفر من حصة الأنف ، واسمه بالفارسية معرب آذركون أى أنه على لون النار في الاشراق ٠

أسد الأرض : قال أبو معاذ عن (ابن ماسويه) انه بذر الزيتون البرى وقال (الدمشقى) هو الماذريون والأسد الذى هو السبع بالرومية (لاون) وبالسريانية (اريا) وبالفارسية (شير) وبالتركية (أرسلان) وبالهندية (سين) ٠

اسفند : هو (الخردل الأبيض) وربما سمى بالاسفيس قال (أبو معاذ) ٠

اسفند سفاد هو الخردل الأبيض ٠

اشنة : هو باليونانية (بروون) وبالفارسية (دواله) ٠٠ قال (الفزارى) هو بالهندية (سيلبوا) ... قال أبو العباس الخشكي في كتاب العطر : انه نبات على ساحل البحر من برة الى أيلة وزاية الطور ، كما يدور من جدة الى اليمين الى ساحل

البصرة ويشبه ورقة الشيح البستانى ، كاسف اللون تعلوه أمواج البحر عند قوة الريح فيعلق بها غثاء البحر ويحيط به كالجلدة ثم تجففه سواء فى الريح ، ولايستعمل الا بعد الفرك بين الراحتين ونفضه ليسقط عنه الغثاء ويصفو بياضه ·· وقال جالينوس : هو محلل ملين وخاصة ماوجـد منـه على شجر الصنوبر ··) (١) ·

اقحوان : هو البانونج ويقال له القراص الفزارى : انه البانوج وبالسندية فلانج وقال أبو حنيفة : (هو الاقحوان والقحوان ·· ورقة فتيل كورق الشيح غير منبسط) ·

الآنيسون : بالمد وكسر النون يليها ياء مثناة ساكنة فسين مضموتة وواو ونون لفظ رومى هو الكمون الحلو وبالفارسية (باديان رومى) لونه يقشر قشرا شبيها بالنخالة قوى الرائحة والذى بالجزيرة التى يقال لها اقريطش وهو أجوده وبعده المصرى (جالينوس) أنفع مافى هذا النبات بذره وهو بذر حريف مر حتى انه فى حرارته قريب من الأدوية المحرقة (ابن ماسويه) ينفع من السدد العارضة فى الكبد والطحال المتولد من الرطوبات عاقل للبطن المستطلق ولاسيما اذا قلى قليلا ·

وختاما فما أحرانا نحن العرب اليوم باختيار المصطلحات المناسبة واحتذاء حذو أجدادنا فى السعى الى توحيد المصطلح العربى قبل أن تصبح لكل بقعة عربية مصطلحات خاصة بها وتبعد لغة العرب عن فهم العـرب وتنشأ لغـات جـديدة ومصطلحات متباينة ·

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣ ·

المراجــع

١ ـ الألفاظ الفارسية المعربة
لادى شير

٢ ـ التعـريفات
الشريف الجرجاني

٣ ـ كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر
البيرونى

٤ ـ حول توحيد المصطلحات القانونية
محمد شفيق العانى

٥ ـ سلس الغانيات فى ذوات الطرفين من الكلمات
نعمان خير الدين الالوسى

٦ ـ شفاء الغليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل
أحمد الخفاجى

٧ ـ كتاب الصيدنة
البيرونى

٨ ـ العلم عند العرب وآثره فى تطور العلم العالمى
ألدومييلى ترجمة عبد الحليم النجار

٩ ـ فقه اللغة
ابن فارس

١٠ ـ كشاف اصطلاحات الفنون
التهانوى

١١ ـ المعـرب

الجواليقى

١٢ ـ المتوكلى

السـيوطى

١٣ ـ مفاتيح العلوم

الخـوارزمى

١٤ ـ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها

انستاس الكرملى

الفصل الخامس

الأثر النفسي والاجتماعي في تعريب التعليم

الأثر النفسى والاجتماعى فى تعريب التعليم (١)

ليس تعريب التعليم أمرا سهلا ، أو قضية بسيطة الحل بعد أن مر العرب بمرحلة طويلة من التأخر العلمى ، والجمود الفكرى ·

انه مشروع ضخم من مشاريع الحضارة العربية الجديدة ويظهر خطره باتساع الميدان ، وتشعب الجذور ، واختلاف المصادر ، ولابد لدراسة هـذا المشروع ، والنهوض بأعبائه الكبيرة من أن نخطط له تخطيطا كاملا وأن نلم بجـوانبه المتشعبة ولاسيما الجانب الاجتماعى والأثر النفسى بعد أن سبقنا الغرب فى ميدان التقنية العلمية وسرح الفكر بأعمال ضخمة ومنجزات مثمرة فى النمو والتطور ·· وسيطرت على نفوسنا شدة البهر والانبهاروفقدنا الثقة بالنفسوالقدرة على مجاراته بما نراه كل يوم من المخترعات ، ونقرأة عن تطور الفكر والعلم ولاسيما العلوم الصرفة ·· والتجارب المادية الكثيرة التى دخلت فى حياتنا اليومية بالمستحدث الجديد وأثرت فى عقولنا بالاتجاه الحضارى الغربى دون وعى أو تمحيص ·

وأخشى آثر هذه الحضارة فى نفوسـنا ، التى فـرقها التمزق الفكرى حتى غـدت اللغـات الأجنبية ومصطلحاتها سمة الرجل الذى يدعى العلم والثقافة فدخلت هذه اللغات فى الكتب والمقالات · والحديث اليومى ·

---

(١) ألقى فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى ١٥ جمادى الآخرة ١٤٠٥ المصادف ٧· مارس ١٩٨٥· ·

نشر فى مجلة المجمع العلمى العراقى فى العدد الرابع من المجلد السادس والثلاثين ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥ ·

وزاد الطين بلة اختلاف الأقطار العربية فى وضع المصطلحات العلمية والترجمة المتباينة فى لغة العلوم ·

فالتخطيط ضرورة لوضع حد لهذا الاختلاف · والمنهج هو الذى سيقف حائلا دون الفوضى اللغوية والتضارب الفكرى ويحول دون الانفصام اللغوى والقلق الفكرى ، والحيرة البيانية التى تأتى من اختلاف الآراء ، وتشعب القواعد ، وتباين المناهج فى الأقطار العربية ·

التعريب فى العراق

وقد قام العراق بوضع خطط لتعريب التعليم الجامعى وعقد عدة ندوات ، وقد طبعت محاضرها ومن أبرز هذه الندوات (مؤتمر تعريب التعليم العالى فى الوطن العربى) الذى عقد فى بغداد ما بين الرابع من شهر آذار والسابع منه سنة ١٩٧٨ ·

وقد حضره عدد من الاساتذة والمتخصصين من أكثر الأقطار العربية كالكويت والأردن والمغرب والخرطوم ولبنان وتونس ودمشق وصنعاء وأبى ظبى والجزائر وجامعة بير زيت ، وقد حرمت الندوة من حضور القاهرة بسبب القطيعة السياسية المعروفة ·

الأردن

وكان قد صدر قرار بالبدء فى تعريب التعليم العالى فى الأردن فى حزيران ١٩٧٨ وبدأت العلوم تدرس باللغة العربية فى الصفوف الأولى وأجل التعريب فى كليتى طب الأسنان والطب البشرى على أن يطبق التعليم باللغة العربية من أول سنة ١٩٨٠ فى الأردن ·

وقد حدثني الزميل الفاضل الدكتور عبد الكريم خليفة بأن عملية التعريب في الأردن تسير مسيرة جيدة · أرجو أن نسمع عنها أطيب الثمرات وان تجني العملية خير النتائج ·

تونس

وفي تونس يبذل المجلس العلمي (للمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات) جهودا مشكورة في تنظيم حركة الترجمة وأنشأت معهدا باسم (المعهد الوطني للترجمة الأدبية والعلمية ووضع المصطلحات) ·

عوامل النجاح

ان عملية تعريب التعليم لابد أن يضمن لها أهم مقومات النجاح · ولعل من اعمق هذه المقومات قبول التعريب نفسيا من المجتمع والطالب والاستاذ وخلق الاستعداد النفسي ، وزرع الثقة باحترام اللغة العربية ، فأنا أعرف عن أحد الأقطار العربية أن الموظف اذا كلمته باللغة العربية ازور عنك بعد أن أصبحت اللغة الفرنسية جزءا من الحياة الاجتماعية ، وأخذ الطفل يتعلمها ويتحدث بها لأن أمة ترى بأن الحديث بالفرنسية سوف يجلب لابنها الاحترام ·· ومن الصعب التلاؤم الروحي ، والرضا النفسي عند هذا الانسان ·· فتكلم بها العامل والفلاح والحمال ·

وقد سرت بين المجتمع نظرة غير محترمة لمعلم اللغة العربية · فقد كان يقال للطالب المخفق : اتريد أن تكون معلم لغة عربية ؟ ثم ان بعض الأقطار العربية تدفع لمدرس اللغة العربية أجرا أقل من أجر مدرس العلوم والرياضيات ، ويفضل مدرس العلوم والرياضيات في السكن عن مدرس العربية ، الذي يقف آخر الصف ويكون آخر من يحصل على السكن ·

وحدثني أحد الزملاء أنه سافر الى قطر عربي فوجد استعدادا نفسيا للحديث بالفرنسية لأنها لغة عالمية متحضرة، وهذا ما دعا أبناء الشعب الى التمسك بالفرنسية والدفاع عنها ..

وبالمقابل نجد أن اللغة الفرنسية كانت مستعملة في مدارس دمشق ، ولاسيما الطب ، ولما انفصلت عن الدولة العثمانية ، أخذ اساتذة الطب يتعلمون العربية ، ويستعينون في كتابة المحاضرات باساتذة العربية ، لأن الثقافة كانت تركية فتغلب هؤلاء على اللغة الأجنبية عندما ترجموها الى العربية ، ووضعوا لها المصطلحات : وهذا ماوجدناه في زمن محمد على باشا ، وقد أشار اليه أستاذنا الدكتور مدكور في اليوم الأول من هذه الدورة .

ان الاستعداد النفسي عند شعب من شعوب العرب ، وتمسكهم بالجذور ، هو الذي عرب التعليم في سورية .. وأخره عند شعب آخر .. مازال يحب تعلم لغته .

لذلك أرى أن أهم مقومات النجاح هي :

١ ـ توفير الكتب العلمية ، ومصادر البحث ، والمراجعة ، باللغة العربية لطلاب العلوم ، بعد أن كثرت هذه الكتب في اللغات الأجنبية ، وتنوعت فروع العلوم نتيجة التجارب العلمية وتطور التقنية والمخترعات والاكتشافات ، وتطور الحسابة السريع في معاهد الغرب العلمية .

٢ ـ اعداد الأساتذة اعدادا نفسيا ، ليكون الأستاذ قادرا على تدريس العلوم الصرفة لاسيما الطب والهندسة والصيدلة باللغة العربية ، لأن كثيرا من الأساتذة تعلموا علومهم

باللغات الأجنبية ، وتعمقت فى نفوسهم الثقة باللغة الاوربية ، واستمروا على القراءة والمحاضرات بهـا ، واتسعت الهوة بين لغتهم واللغة الأجنبية التى أتقنوها ٠

٣ ـ ان العامل النفسى الذى أسلفت التحدث عنه ، من أهم العوامل المؤثرة فى نشر التعليم باللغة العـربية ، لأن خلق الاستعداد النفسى والاجتماعى فى تقبل الدراسة باللغة العربية ضرورة من ضرورات الابداع ، ولخلق الثقة بقابلية العربية فى استيعاب العلوم الحـديثة ، وهضم الحضارة الجديدة ، لتكوين وحدة روحية تزرع الثقة العميقة بأصالة اللغة العربية ، والاعتداد بالتراث الاسلامى ، وبالتالى اعادة الثقة بقابلية الطالب العربى والاعتداد بالمستوى العلمى للأستاذ ٠٠

ان العـامل النفسى ضرورى لكسب ثقـة الدراسـين ، والمدرسين واقناعهم بأهمية مايقومون به ، وان تعليم العلم الصرف باللغة العربية يحفظ مستقبلهم ، ويصـون ويطور حضارة الأمة العربية ٠٠

وقدق تكون بداية هـذا الاقناع عاطفية الجـذور ، لأن المشاعر ذخيرة متنامية تخلق المواقف الكثيرة وتؤثر فى حياة المجتمع العربى وسياسته العامة ٠ وأرجو ألا يقتصر الاقناع الروحى على الطالب والأستاذ ، انما لابد من اقناع الرأى العام ليؤثر بدوره فى جو التعليم كله ، ويرى بأن التعليم باللغة العربية لايختلف عن التعليم باللغات الأجنبية ، وهى مرحلة صعبة ٠!٠

ولعل من المعول عليه أن يمتد هذا الاقناع الى أصحاب التوجيه الادارى ، والعمل التشريعى ، لضمان مواقف الدول

القومية لاصدار التشريع المناسب الذى يحقق نجاح مشروع التعريب ٠

وتذكرون أننا عقدنا فى العراق اجتماعا للمجامع العربية ، وحضر بعضكم الى بغداد ، وسعدنا بالحضور الى مجمعكم الموقر لكن مواقف الدول العربية حالت دون أن تستمر الفكرة الرائدة ، التى كنا ننشدها من اجتماع المجامع الثلاثة فى كل عاصمة عربية ٠

★★★

ان بعض المشرفين على التربية فى الأقطار العربية ، وبعض الأساتذة يظن أن القاء المحاضرات باللغة العربية يحط من قيمته الجامعية ، ولايعطيها الطعم العلمى ، لانه تذوق التعليم باللغة الأجنبية ، وألف الكلمات الغربية وأصبحت أداته السهلة فى التعليم ، وقد درس بها وكتب بحوثه بمصطلحاتها ٠ وأصبحت جزءا من كيانه الروحى ، وفكره العلمى ، وابتعد عن اللغة العربية ولم تعد لغته العربية تفى بما يدور فى فكره العلمى ، من آراء ومصطلحات لأن اللغات تؤثر بعضها فى بعض ، وقد مر أكثرنا بمثل هذه التجربة عندما درسنا فى الغرب وألفنا اللغة الأجنبية وأحسسنا بحلاوة كلماتها فأثرت فى اللغة العربية مع أننا درسنا اللغة العربية الى مرحلة متقدمة ، فلا لوم على المختصين الذين يذهبون صغارا للدراسة فى الغرب ، وبرغم صعوبة اقناع هؤلاء فمن الضرورى كسب جانبهم للتدريس بلغتهم باقناعهم نفسيا ٠

ومن مظاهر هذا الابتعاد عن اللغة ، التبرير النفسى بصعوبة ترجمة اللغة العلمية الى اللغة العربية ، وانعدام

المصطلحات والكلمات الدقيقة فيها ، لان الأستاذ في تبريره لايريد أن يحس بأنه لايقدر على التدريس بلغته العربية ، بدوافع نفسية عميقة ، منها الوطنية والقومية ونظرة المجتمع اليه بأنه ضعيف لايعرف غير اللغة العربية .

فيخلق التبرير النفسي لارضاء الذات الاجتماعي واقناع اللاشعور بما يعمل .

ولعل بعض الأساتذة لايقدر على سبر أصلي المواد العلمية ، وحقائق المخترعات الجديدة ومصطلحاتها ، وقد يكون بعيدا عن المنهج العلمي والدراسة الموضوعية لضعف في اللغة والعلوم التي تخصص فيها .

ان بعض الأقطار التي مازالت تدرس بالفرنسية والانكليزية ، وخلقت طبقة من المتعلمين غدت مؤثرة في اتجاهات التربية فمنعت هذه الطبقة التعليم باللغة العربية ، حفاظا على مصلحة الطبقة التي تمثلها . وقد ورثت هذه الطبقةامتيازاتها من الأجنبي الذيكان قد فرض لغته علىتلك الأقطار ، وأصبح المتكلم باللغة العربية أقل من أولئك الذين يتكلمون لغة المستعمر ، وبذلك خلقت عقدة الشعور بالنقص، بالنسبة للغة العربية . وخير سبيل أن تقابل هذه العقدة بالاقناع النفسي ومتى حلت هذه العقدة النفسية واقتنع هؤلاء بأن اللغة العربية لغتهم ولغة تراثهم ، وأن التحدث بها مبعث فخر واعتداد بالنفس فيذهب عنهم الخوف على طبقتهم ويأمنون على مصالحهم وينمحي احساسهم بتفوق العلم الغربي ولغته . وسوف يسهمون في حركة التعريب .

ان من يرى اللغة العربية غيرقادرة على الوفاء بالتعريب، لا لوم عليه لان كل عمل جديد وكل نقلة حضارية تكون

مجهولة النتائج ، تخيف القـائمين عليها . ان الخـوف من التجديد والتطور سنة الكون . فالقديم يحاول الحفاظ على قديمه ، ويقف أمام التيار الحديث ، ولكن بالاقنـاع ورسم صورة واضحة للمستقبل يتخلص هؤلاء من الموقف السلبى ويسايرون الركب .

الكتـاب

ان الشكوى التى يرتكز عليها الخـائفون من التعريب ويبررون بها عدم التدريس بالعربية ، عـلاوة على العامل النفسى الداخلى هى عدم وجود الكتاب باللغة العربية ، وقلة المصادر التى يعتمد عليها الباحث والطالب ، وتلك حجـة صحيحة وصادقة ، ولكن اذا آمن هؤلاء بأن تعـريب التعليم واجب من الواجبات الوطنية والقومية ، وانه ضرورى للتطور الحضارى فلابد أن يسهموا فى اعـداد الكتـاب الذى يلائم المستوى العلمى الذى يسير فى هديه الطلاب .

وقد برهنت اللغـة العـربية منـذ تأسيس دار العلوم والجامعة المصرية ثم كلية الطب فى دمشق ومدرسة الحقوق والهندسة فى بغداد على قابلية اللغـة العـربية فى كثير من العلوم ، وقد هضمت اللغة العربية كل المصطلحات بسهولة ، فقد رأيت كتبا فى الطب العام والتشريح والهندسة والكيمياء والفيزياء فى زمن محمد على باشا ، وقد ترجمت هذه الكتب واستوعبت مصطلحات الطب والهندسة والكيمياء والجغرافيا . وقد ترجمت كتب الطب والكيمياء ووضـع لها المصطلحات ورموز الكيمياء بالعربية ، واجريت التجارب العلمية وكتبت نتائج هـذه التجارب فيها فى يعسوب الطب وتلك أصـدق الشواهد ، وأوضح البراهين ، ويمكن للباحث أن يجـد فى الكتب الطبية التى ترجمها الطبيب أحمد محمد بدر أفندى

فى علم الأمـراض الباطنية ، والطبيب أحمد أفنـدى ندا (مدرس علم المواليد الثـلاثة) بالمدرسة الطبية ، والطبيب محمد شافعى فى (أحسن الاغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض) سيطرة العربية وقوتها فى ايصال العلوم الطبية الى الطلاب ·

فاذا كانت اللغة العربية فى بداية الترجمة والاحتكاك باللغات قادرة على وضع كتب العلوم باللغة العربية ، فلاشك بأنها قادرة بعد التطور الحضارى والفكرى من أن تستوعب لغة العلم وتضع كتبا متطورة اليوم ، وقد درسنا كتبا فى الفيزياء والكيمياء والهندسة والعلوم الصرفة باللغة العربية ولابد أن الدراسة فى الجامعات ستسير فى هذا الطـريق ، وتصل الى ماوصلت اليه الجامعـات الأجنبية فى التـدريس بلغاتها

ان وضع الكتاب باللغة العربية ، والشعور بقدرتها على استيعاب هذه العلوم يخلصاننا من عقدة النقص التى استولت على بعض الدارسين ·

ويقدر الطالب على فهم العلوم بسهولة ويسر ، ومتى استوعب الطالب علومه ، وهضمها وفهم مصطلحاتها ، فسوف يكون قادرا على الاختراع والاكتشاف والابداع عندما يصل الى مرحلة من التعليم كافية · لأن فهم القواعد العلمية الأولى ضرورى للتطور والتجديد ، ويقينى بأن الطالب اليابانى والروسى والصينى لم يبدع أو يكتشف ويطور العلوم الا بعد أن درس العلوم بلغته القومية وأحس بالسيطرة على هـذه العلوم والاستفادة منها ·

ان وجود كتاب باللغـة القومية أول أسس القـواعد النفسية ، التى تغذى الطالب بالثقة بقدراته لانها تمكنه

من فهم الجزئيات العلمية وبالتالى تمكنه من الابداع • فبعد أن فهم اليابانى لغة العلم عكف على مخترعات الغرب وطورها، ونافس أصحابها فى عقر ديارهم بل اكتشف مالم يخطر ببال الغرب من الأمور الدقيقة والجزئيات الصغيرة • التى لم يصل اليها الغرب بعد •

الطـالب

متى أصبح الأستاذ مقتنعا نفسيا بضرورة التعريب ، وآمن بأنه يقوم بعمل قومي ووطنى وأعدت الكتب وترجمت المصادر ، أصبح التدريس للطالب أمـرا سـهلا يقضى على العامل النفسى فى عقدة النقص •

ان التعريب لن يبعد الطالب عن الاسـتيعاب ، ولايقف حائلا دون فهمه ، وبعد أن وضعت المصطلحات وكتبت الكتب بأسلوب عربى مبين •

وقد لاحظت ، من خلال تتبعى للتعليم فى زمن محمد على باشا ، مقدار الجهد الذى بذله المشرفون لايصـال العـلوم الى أفكار الطلاب ، فلم يكن الأساتذة يعرفون اللغة العربية ، أما المترجمون فلم يكونوا يعرفون الا اللغة العامية المصرية، وكان منهم الطليان والفرنسيون •ولن يكون القرن العشرون بعد أن كثر الذين يعرفون اللغة الأجنبية ، وتوفر ماترجم وما وضع من معجمات ، حائلا دون فهم الطالب ، ولن يجد صعوبة فى التعريبفقد سهلت المعجمات والترجمةعلى الطالب العلم ، وفهم النظريات الحديثة التى تعلم قواعدها الأولية فى الثانوية ، وسيجد أن لغته العربية قادرة على ايصال العـلم اليه •• وعندما يدرس العـلوم الصرفة بها يغـدو قادرا على الفهم ، ورفع مستواه العلمى والفكرى ، وبالتالى سيقود

هذا الفهم الى الابداع كما حدث فى اليابان وروسيا والصين ·

ختاما :

ان التعبير باللغة العلمية سوف يعمق الأصالة الفكرية ، وأرجو ألا يقف التعريب عند ترجمة البحوث ، ووضع المصطلحات ، انما أرجو أن يكون أداة صادقة للابداع · فاذا ساعدت اللغة اللاتينية اللغات الاوربية فى وضع المصطلحات لتقارب مخارجها ـ ووحدة جذورها فاللغة اليابانية بعيدة كل البعد عن اللاتينية ، وفى اللغة العربية يساعدنا الاشتقاق والكواسع واللواحق على تطوير المصطلح العلمى وتوحيده ·

ان ماورثناه من مصطلحات العلوم التى وضعها الرواد المسلمون فى البحث العلمى مثل أبى بكر الرازى فى (الحاوى) وماكتبه عن (محنة الطبيب) و (الجدرى) ·· وابن سيناء فى (القانون) ، وابن البيطار فى (جامع مفردات الأدوية والأغذية) ، والحسن بن الهيثم فى الضوء ، وجابر بن حيان فى علم الكيمياء ، والفارابى والخوارزمى والمجريطى والبيرونى وغيرهم من العلماء والمفكرين الذين تعرفونهم جميعا حافز لنا فى وضع أسس التعريب الحديث ·

ان وحدة اللغة العلمية سوف تكون ركيزة للوحدة الفكرية ، تحافظ على الهوية العربية ، وتحد من التمزق الذى بدأ يسرى فى اللغة العلمية ، مع أن اللغة العربية هى لغة جميع العرب ، ومن أصالتها يستمدون حاضرهم اللغوى، وبالتالى سيكون الفكر العربى موحدا علميا ، ويمكن الاستفادة المباشرة من جهود العرب الجديدة فى مضامير

الاكتشاف العلمى ، ويشاركون العالم فى صنع الحضارة ٠ بعد أن بذلت المجامع العربية جهودا كبيرة فى تيسير المصطلح وصقله وجاء جيل جديد تعلم الأجنبية وأتقنها ٠

الوســائل :

وأخيرا أتمنى لتحقيق هذه الغاية ان :

١ ـ تؤلف لجنة عربية مختلفة الاختصاص ، تشمل العلوم الصرفة والعلوم الانســانية ، يكون عملها قاصرا على الترجمة واختيار أمهات الكتب التى صدرت فى اللغات الأجنبية ، وما ستصدر فى المستقبل وأن تخصص جانبا من نشاطها لترجمة المقــالات التى تصــدرها المجامع العلمية واللغوية والمعاهد المتخصصة ، وتوزع منع الكتب على جميع ذوى الاختصاص ومواكبة التطور العلمى فى جميع أنحاء الدنيا المتحضرة ٠٠٠ وهذا العمل هو الذى اختصر الهوة العلمية بين علماء العالم ، برغم الاختلاف السياسى وتباين العقائد ٠ فى الشرق والغرب ٠ وأدى بالتالى الى تبــادل المعلومات العلمية بين آمريكا ودول اوربا والى ازالة الفــوارق اللغــوية ، والتغلب عــلى الاختلاف الفكرى وتقريب وجهات النظر فى الاختلاف الذى سببه اختلافهم السياسى ٠

٢ ـ جمع المصطلحات الحــــديثة ، التى تضــعها المجــامع والمؤسسات العلمية والجامعــات ، وتوزيعها على جميع مصادر وضع المصطلحات الحديثة ، لاقرار ما اتفق عليه الذوق العام ٠

٣ ـ اصدار مجلات علمية متخصصة ، لاستعمال المصطلحات الجديدة وقد سبقنا الى هذا فى العصر الحديث العاملون

على مجلة (يعسوب الطب) و (روضة المدارس) وأوائل أعداد جريدة (الوقائع المصرية) . وفى العراق (لغة العرب) على ضيق فى المال وقلة العلماء والمترجمين ، ولايمكن أن يقصر العرب ـ اليوم بما لهم من أموال ومن كثرة فى الأساتذة ووفرة فى المترجمين والمختصين عن مجاراة الرواد الأوائل فى القرن التاسع وأوائل القرن العشرين .

٤ ـ تشجيع البحث العلمى ، باعداد شباب فى الدراسات العليا يوقفون بحوثهم على جهود العرب فى العصر العباسى ، وعصر محمد على ، لدراسة لغة العلم فى هذه الحقب ، وحصر المصطلحات العلمية التى استعملت فى كتب العلوم الصرفة بصورة خاصة ، والعلوم الانسانية بصورة عامة .

٥ ـ القضاء على الانفصام الفكرى ، الذى بدأ ينتشر بين العرب فى فهم لغة العلوم ، واقناع الأساتذة بضرورة التعريب لانه من أهم أسس الأصالة العلمية للأمة وتطوير حضارتها ، وغرس الثقة بقدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم الحديثة ، والتأكيد على أن الروابط التاريخية والوطنية والقومية ، تقوم على وحدة اللغة ، التى تبنى الجسور بين الشعوب العربية وتعمق الصلات الروحية والحضارية بينهم . بعد أن أثر هذا الانفصام فى كثير من اتجاهات المفكرين المعاصرين .. بعد التمزق الداخلى للأمة العربية الذى حال دون وحدة الفكر والمصالح المشتركة .

٦ ـ ضرورة توحيد التشريع ، لتعريب التعليم باللغة العربية ، وقد سبق مجلس قيادة الثورة فى العراق الى

وضع هذا التشريع وطبق فى الجامعات العراقية ، ولابد أن الأقطار العربية الأخرى فعلت مافعل العراق وآخر ماصدر قرار من الملك فهد بضرورة استعمال اللغة العربية فى جميع المراسلات والمعاهدات والتعهدات فى المملكة العربية السعودية ٠

ان تعريب التعليم لابد أن يكون متكامل الأهداف ، ليصل الى وحدة فكرية ولغوية ، ولن يصل الى حد النجاح ، مالم يكن هناك رابط نفسى ينسق هذا العمل الكبير ، وأن يكون له مركز يوجه هذه الأعمال الكثيرة ، ويتابع تطبيق ماتضعه الجهات العلمية من مصطلحات وترجمات وتعريب ٠

ولن تخدم القرارات التشريعية وحدها الهدف الكبير ، مالم يساند فكريا ويؤمن الجميع بأن التعريب يقرر مصير اللغة العربية المعاصرة ، ومستقبل الأمة كلها وسوف يأخذ الأمة الى مستوى علمى راق لتواكب الحضارة الغربية ٠٠ بعد أن سبقنا الغرب بمراحل واسعة ٠

أرجو من الله التوفيق وأن يأخذ بيد أمة العرب نحو أسمى هدف من أهدافها ، فى وحدة فكرها ولغتها ومصيرها ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

★★★

الفصل السادس

المعجمات العربية وتوحيد المصطلح العلمي

المعجمات العربية
وتوحيد المصطلح العلمي

مقـدمة : ـ

ترددت كثيرا في الكتابة في هـذا الموضوع لصـعوبة الاحاطة التامة به ، فطبيعته المتحركة تحـول دون الاحصاء التام ٠ فمعذرة اذا كانت خطوط البحث عامة ٠ لأن الغاية هي اثارة الموضوع وابراز هدفه الأول ٠ ومن الاستقراء العام نجد أن حركة وضع المصطلحات الجادة في المؤسسات العلمية المستمرة ، يزحمهـا بالمنـاكب اجتراء تجـار الكتب على اصـدار المعجمات بشكل واسع ونشرها دون رقابة علمية حتى غطت على ماتخرجه المجامع والمؤسسات العلمية وتفوقت عليها بالكثرة وجمال الاخـراج واتقان الأغلفة والاغـراء النسبي في الزينة الخارجية ٠

ولم يقف العمل التجاري عند هذا الحد انما تجرأ ناشر على تزوير جزء آلصقه بلسان العرب جمع فيه المصطلحات العلمية التي وضعت في المجامع ولم يسمع بهـا ابن منظور ولا عصر ابن منظور ، ورغـم فائدة هـذا الجمع ، فينبغي مراقبة مثل هذه الحركة قبل أن تستفحل ويصبح الفيروزابادي والزمخشري والفراهيدي من مؤلفي القرن العشرين ٠

(★) قدم في مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في ٢١ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ الموافق ٢٣ شباط ١٩٨٤م ٠

نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي الجزء الثالث المجلد الخامس والثلاثين ١٩٨٤م ٠

المصطلح : ــ

يوضع المصطلح باتفاق جماعة على معنى محدد لعلم أو فن أو فكر أو تيار فلسفي أو ظاهرة في الأدب والعلم والفن والفلسفة ، أو جانب منه ، أو جزء لتسهيل الفهم وتحـديد الدلالة • وقد ورد في (الوسيط) بأقرب معنى وأقصره بأنه (اتفاق طائفة على شيء مخصوص ، ولكل علم اصطلاحاته) •

الحضارة الأوربية :

غمرتنا الحضارة الحديثة التي جاءت من الغرب بأنواع شتى من المخترعات والفلسـفات التي لايمكن أن تتوقف ، وزخت العلوم الجديدة والتقنية المتطورة والآراء المتصارعة على عالمنا العربي بما لم نسمع به من قبل ، ولم يسمع حتى أبناؤها بها من قبل هذا القرن • وغمر اللغة العربية طوفان من المصطلحات المتناقضة والأطر الفكرية الغربية في الكتب والمجلات ووسائل الاعلام المختلفة التي ترجمت الى اللغـة العربية •

دور المجامع :

وقد حاولت مجامعنا ــ جاهدة ــ تقريب وجهات النظر المتباعدة عندما عقدت اجتماعين لها في بغداد والقـاهرة ، وكانت تريد الاجتماعات دورية لانجاز مهمتها العلمية ، غير أن الأمور الخارجة على ارادة العلم حالت دون الاستمرار فيها، والاستفادة المرجوة من لقاء أصحاب الشأن والارتفاع بجهود المجامع •

ومع ذلك فقد كنا في المجمع العلمي العراقي ، ندرس المصطلحات التي تم وضعها في مجمعي اللغـة العـربية في

القاهرة ودمشق وننتفع بما وضع من المصطلحات الجديدة التي كانت تعرض على اللجان (١) ٠

المنظمة العربية :

وقد حاولت المنظمة العربية للثقافة والعلوم عدة محاولات جادة فى هذا السبيل ، كما عقد المجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم والفنون اجتماعات فى تونس ودمشق والقاهرة لكن حالت دون استكمال هذه الاجتماعات الظروف والعوائق المعروفة ووقفت أمام فكرة توحيد المصطلح وحدت خطواته التى يرجوها المخلصون (٢) ٠

ان كثرة الجامعات ــ بما فيها من خير ــ وزيادة عدد المتعلمين الذين يعرفون اللغات الأجنبية وانتشار المجامع زاد فى تفرق الكلمة وتناقض المصطلح ٠ فمن الضرورى القيام

---

(١) يمكن ملاحظة ذلك فى المصطلحات التى وضعها المجمعيون فى بغداد فى الفيزياء وعلم الأحياء والهندسة المدنية والرى والبزل وعلم النابات وعلم النفس والأمراض العقلية ، ومن اعضاء هذه اللجان كما وردت فى (مصطلحات علمية) المطبوعة فى مطبعة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٨٢ الأساتذة السادة أعضاء المجمع العاملون احمد عبد الستار الجوارى وعبد العزيز البسام ومحمود الجليلى وعبد اللطيف البدرى ونجيب خروفة واللواء محمود شيت خطاب وحسن الكتانى ويوسف عز الدين ومحمد تقى الحكيم وجميل الملائكة واحمد ناجى القيسى وجوامير مجيد سليم وفخرى الدباغ وعلى عطية وجلال محمد صالح وأحمد سوسة رحمه الله ، اضافة الى خبراء يختارهم المجمع من ذوى الاختصاص فى العلوم التى يضع مصطلحاتها ووضع المقدمة الدكتور صالح أحمد العلى ٠

(٢) هناك مشاريع أخرى للمعـــــاجم تلك التى نشرت فى تونس فى الرياضيات والكيمياء والفيزياء ونذكر مؤتمر الجزائر الذى عقد فى ١٩٦٤م باشراف اليونسكو والمؤتمر الذى عقد فى طرابلس الغرب سنة ١٩٧٧ لتوحيد المصطلحات ومؤتمر تعريب التعـــليم العالى فى الوطن العربى الذى عقد فى بغداد سنة ١٩٧٨ ٠ وبعد المؤتمر الزمت الجامعات والمؤسسات التربوية بالبدء فى التعريب فى الصفوف الاولى ، وبدأ التعريب فى كليتى الطب وطب الأسنان سنة ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ الجامعية ٠ اضافة الى تدريس مادة علمية باللغة الأجنبية فى كل سنة دراسية ٠ واسس لهذا الغرض مركز للتعريب لتنظيم عملية التعريب وتنسيق المصطلحات وشارك فى المؤتمر أعضاء من المجمع العلمى العراقى العاملين هم جميل الملائكة ومحمود الجليلى ومحمود شـــيت خطاب وعبد الرزاق محى الدين ويوســف عز الدين وفخرى الدباغ وأسهموا فى بحوث المؤتمر ودراساته وتوصياته ٠

بعملية تنسيق جادة وتنظيم مستمر بين المؤسسات العلمية في الوطن العربي ·

التعريب في القديم :

عندما بدأ التعريب في العصر العباسي في بغداد ، كانت المصطلحات موحدة لأن مصدرها واحد هو بيت الحكمة · وقد اعتمدت البلاد الاسلامية عليها بالرغم من أن البداية لم تكن تلائم الذوق العربي الأصيل بدخول كلمات أجنبية في الترجمة مثل (ارثماطيقى) للحساب (وجومطريا) للهندسة و (بويطيقا) للشعر وغيرها مما هو معروف ، وقد تبدلت هذه الألفاظ وصقلت لما أشرف الأدباء وأصحاب الذوق العربي الأصيل على الترجمة فقد احتوى المترجم الأديب المعنى وفهمه وصبه في الذوق العربي ومن الامثلة ماصنعه ثابت بن قرة في كتابي (اقليدس) و (المجسطي) ·

التعريب الحديث :

وأستميح سادتي عذرا ان ذكرت بداية وضع المصطلح الحديث التي ماتزال اشارة واضحة في لغة العلوم والفنون والآداب في مصر عندما أرسل محمد على باشا بعبوثه الى الغرب · فقد كانت هذه البعثات رائدة في عملها برياسة رفاعة رافع الطهطاوى ·· فقد فرض على جميع الأعضاء بعد عودتهم الاهتمام بالتعريب والترجمة ·

فقد درست مجلة (يعسوب الطب) (١) الصادرة مابين عامي ١٢٨٥ هـ و ١٢٨٦ هـ و (روضة المدارس) التي أملك

---

(١) لا تملك دار الكتب إعدادا كاملة للمجلة ·

نسخة مصورة منها (١) وقلبت كتبا ترجمت الى اللغة العربية في مختلف العلوم والفنون ، فوجدت جهدا كبيرا ودقة واضحة فى الترجمة ووضع المصطلح تشابه حركة الترجمة الأولى التى قامت فى بغداد ٠ ومن هذه الكتب (٢) ٠

١ ـ حقائق الأخبار فى أوصاف البحار ٠
تأليف على باشا مبارك ٠

٢ ـ الصحة التامة والمنحة العامة ٠
تأليف طبيب مصره ولقمان عصره معلم الأمراض الباطنية بالمدرسة الطبية محمد بدر أفندى ٠

٣ ـ آثار الأفكار ومنثور الأزهار ٠
تأليف عبد الله بك فكرى ٠

٤ ـ المباحث البينات فيما يتعلق بالنبات ٠
تأليف الحاذق الماهر ذى الفضل الباهر ـ أحمد أفندى ندا ـ مدرس المواد الثلاث بالمدرسة الطبية ٠

٥ ـ الأزهار البديعة فى علم الطبيعة ٠
تأليف مسيو بيرون معلم الكيمياء بمدرسة الطب ٠ جمعه من كتب الفن الفرنساوية وترجمه يوحنا عنحورى المدعو بحنين مع مساعدة المؤلف المذكور لمعرفته بالعربية وصححه الشيخ يونس الواعظ المصحح ٠

٦ ـ أحسن الأغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض ٠
تأليف محمد التونسى محرر كتب الطب ، قابله مع جامعه محمد شافعى الحكيم الماهر ٠

---

(١) كتب الزميل الراحل الشاعر الكبير محمد عبد الغنى حسن دراسة ممتازة عن (روضة المدارس) ونشرت بالهيئة العامة للكتاب فى القاهرة ٠

(٢) تركت العناوين والتعليقات بأسلوبها وفكرتها ٠

٧ ـ حسن الصنيعة فى علم الطبيعة ٠

لمدرسه على أفندى عزة أحد خواجات العلوم الرياضية بمدرسة المهندسخانة الخديوية ٠

٨ ـ التشريح العام ٠

تأليف كلار ترجمة عيسوى أفندى النحراوى استملاه الشيخ عوض القنائى وهو المصحح الأول ، المقدمة استملاها الشيخ على العدوى وهو المصحح الثانى ، قابله مع بيرون الكيماوى الطبيب العارف لكثير من اللغات ٠

ومن قراءة التعليقات التى كتبت على الصفحات الاولى يجد الباحث مقدار الجهد وشكل العناية والشعور بالمسؤولية التى بذلت فى سبيل خدمة اللغة العربية ٠ ولم يكتف المترجمون بالترجمة والتدقيق والمراجعة والتأكد من وضع المصطلح المناسب انما كانوا يضعون الملاحق لتسهيل فهم المصطلح وضبط الكلمات ٠ وقد شرح الفكرة أحد هذه الكتب بقوله :

(فيه كثير من الأسماء الأعجمية سواء كانت فرنساوية أو يونانية كأسماء مهرة المشرحين ، وبعض حيوانات قد ذكرت للتبين ، وأسماء بعض أمراض ومفاصل ولعجمتها كان التحريف فيها حال التلفظ بها اقرب حاصل ، ولايمكن النطق بها على حقيقتها بالضبط التام ، الذى به يستقيم الكلام ، ولا سبيل الى ذلك الا بضبطها بالعبارة ، لأن الضبط بالشكل غير مأمون الخسارة ، أمرنى حضرة ناظر مدرسة الطب الانسانى الآن الشهير بيرون أن أضبطها بالعبارة ليسهل التلفظ بها ويهون وأن أرتبها على نسق حروف المعجم لتكون مراجعتها أسهل وأقوم وأحكم ٠٠٠) (١) ٠

---

(١) التشريح العام ، تأليف كلار ، طبع فى بولاق ١٢٦١ ٠

دقة الترجمة والتطبيق :

وأعود فأقول ان دقة الترجمة ووضع المصطلح ـ رغم الضعف والركة أحيانا ـ مما يلفت نظر الدارس • فقد كان على طالب من طلاب البعثات الذين عادوا الى القاهرة حريصا على نقل علوم الغرب وفكره وطراز حياته الى البيئة التى كان يعيش فيها وتطبيق ماكان يراه صالحا من العلوم الحديثة الى الطلاب والاستفادة منها فى حياة مصر العامة وماقام به الطهطاوى وماطبع نموذج حى لذلك •

كما أجريت دراسات علمية جديدة على مياه حلوان الملحية الكبريتية من (حضرة موسيو جاستنبيل خوجة الكيمياء والطبيعية ، وترجم الدراسة ذو المعارف الجمة فتوتلو أحمد أفندى ندا ـ لأجل معرفته الفرق بين الأوصاف الكيمياوية لماء حلوان المحتوى على الأصل الكبريتى والأوصاف الكيمياوية للماء المجرد عنه ••) (١) •

وقد ذكر ماحصل للماء من التفاعل الكيمياوى •• وعنيت (يعسوب الطب) بمظاهر الأمراض ووصفتها بدقة ••

توحيد المصطلح :

سبق لى أن ألقيت أكثر من محاضرة فى مؤتمر (تعريب التعليم العالى فى الوطن العربى) الذى عقد فى بغداد مابين الرابع الى السابع من شهر آذار سنة ١٩٧٨ (٢) • دعوت الى ضرورة توحيد المصطلح العلمى فى الوطن العربى • وهو احساس كل من عالج أمور المصطلحات ومن يقرأها فى الكتب

---

(١) يعسوب الطب ، العددان ٢٥ و ٢٦ صفر ١٢٨٥هـ •

(٢) أسهم فيه عدد من أعضاء المجمع العاملين وقد نشرت بحوثهم في مجلة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٧٩م •

والمعاجم التي تصدر في الأقطار العربية • ومؤتمركم خير شاهد على عمق الاحساس وصدق الشعور بالمسؤولية القومية والوطنية العلمية في ضرورة التوحيد سواء آكان في اطار المحاضرات والكتب أم بين دفتي المعجمات المتنوعة فقد دعت الضرورة الى جمع المصطلحات وضمها بعد التنسيق في معجم موحد يعتمد عليه الباحث والدارس والمترجم كل حسب اختصاصه •

وقد أحس أعضاء المجامع في القاهرة ودمشق وبغداد والاردن بضرورة توحيد المصطلح وقد دارت الفكرة في بيت الحكمة في تونس ـ الجلسات الأولى ـ لوضع حد لهذه الفوضى في إختيار المصطلح وضرورة توحيده •

ولتاكيد هذا الاتجاه صدرت عدة معجمات موحدة في العراق منها المعجم الطبي الموحد ـ ومن الصدف الحسنة أن توزع آخر طبعاته علينا في هذه الجلسة والمعجم العسكرى وغيرهما من المعاجم في الطب والفيزياء والكيمياء وعلم طبقات الأرض (الجيولوجى) وصولا الى توحيد المصطلح في العلوم المختلفة مثل علم النفس وعلم الأحياء والهندسة المدنية والرى والبزل والغابات والأمراض • وكنا نراجع ما أقرته المجامع العربية وما أصدره مكتب تنسيق التعريب في الرباط ولم نكن نغفل دراسة الكتب المترجمة باختلاف المترجمين وتعدد الباحثين • وكانت محاولات مجمع اللغة العربية المبكرة في القاهرة جادة في الدعوة الى توحيد المصطلح وكان ماقام به مصطفى الشهابى من جمع لأشهر الألفاظ اللاتينية لأنواع النبات وترتيبها على حروف المعجم وذكر ما يقابلها باللغة العربية مجال دراسة اللجان المختصة (١) •

---

(١) تلاحظ مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق في أعدادها المتنوعة ومنها العدد الأول سنة ١٩٦١ ومعجم المصطلحات الجراحية الانكليزية والفرنسية والعربية للأمير مصطفى الشهابى ومعجم الشهابى في مصطلحات العلوم الزراعية ، طبع مكتبة لبنان •

ولايمكن نسيان جهود اتحاد المجامع العربية فى اصدار المعجمات الموحدة فى الطب والنفط والقانون والمعجم الموحد للمصطلحات العلمية فى الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحيوان وعلم طبقات الأرض ، كما سعت المنظمة العربية للتربية والعلوم فى هذا الصدد لشعورها العميق بهذا التمزق اللفظى ٠

وخارج المجامع قامت مؤسسة الكويت للتقدم العلمى باصدار ثلاثة قواميس فى الكيمياء ومشروع المؤسسة يشتمل على خمسة معاجم باللغة العربية والفرنسية والانكليزية لشرح المصطلحات وقد وعدت المؤسسة بالألتزام بقواعد وضع المصطلحات التى أقرتها المجامع العربية ٠

مشكلة المصطلح :

ان اختلاف المصطلح العلمى فى الوطن العربى مشكلة آنية لابد من حلها فقد كثرت الشكاوى من هذا الاختلاف والتفرق فى وضع المصطلحات التى ماتزال تدخل للحياة العامة ولغة الصحافة والكتاب ونحس بهذا الاختلاف فى أبسط أشكاله فى اللغة اليومية والاستعمال الرسمى ٠

فنحن فى العراق نقول وزارة النفط وفى المملكة العربية وزارة البترول والمعادن وهناك من يسمى النفط بالزيت ووجدنا اختلافا فى كثير من المصطلحات الحيوية منها على سبيل المثال :

علم الطبيعة ـ الفيزياء ـ ويسمونها الفيزيقا ٠

الملحق فى الامتحان ـ الدور الثانى ويسمى الاكمال ٠

المدارس الأميرية والأعمال الأميرية تسمى الرسمية ٠

المدارس الحرة ـ الخاصة ـ الأهلية ٠

ناظر ـ مدير •

المرتب ـ الماهية ـ الراتب ـ الرزق •

محال على التقاعد ـ محال على الاستيداع •

العوائد ـ الرسوم •

وظيفة خالية ـ شاغرة •

كادر ـ ملاك •

وكيل نيابة ـ حاكم تحقيق ـ مستنطق •

محكمة النقض ـ محكمة الاستئناف •

المحافظ ـ المتصرف ـ المدير •

مدير الأمن ـ مدير الشرطة ـ الحكمدار •

سنترال ـ بدالة ـ مقسم •

ولو تتبعت مثل هذه الكلمات لاحتاج الأمر الى صفحات كثيرة اضافة الى شيوع كلمات اجنبية مثل الطابور ومره وكوبرى ونمرة باش وتلغراف وجرنال •• والحبل على الجرار وجرائدنا العربية والاذاعة المسموعة والمرئية شاهد يومى على ما أقول • فلابد من تدارك الأمر والتكاتف مع الجرائد اليومية ووسائل الاعلام بالابتعاد عن مثل هذه الألفاظ وتوحيدها فى معجم واحد أو معجمات حسب حاجة الحياة المعاصرة • وحياتنا الحاضرة المتطورة تخدم عملنا بما فيها من سرعة المواصلات ووسائل النشر الحديثة وأدوات الطبع المتطورة وقد أصبحت الوثائق والرسائل والصكوك ترسل صورها من بلد الى آخر بالهاتف المصور •

وقد توحدت الأمم المختلفة رغم اختلاف جذورها ، فحرى بالعرب القضاء على الفرقة الفكرية والتمزق اللفظى فى

وضع المصطلح العلمي ٠ اذ أخشى أن يأتى يوم لاتفهم فيه شعوب العرب المصطلحات التي توضع في أقطارها المختلفة وأقاليمها المتباعدة ٠

هذه المشكلة حلها السلف الصالح بوضع كتب للمصطلحات مثل مفاتيح العلوم للخوارزمي والمعرب للجواليقي والمتوكلي للسيوطي والتعريفات للجرجاني والمخصص لابن سيده وغيرها من مصطلحات اللغة والأدب والفلسفة ٠ فالدارس العربي والمسلم قد وحد المصطلحات ورآها ضرورة لمسيرة حياته الحضارية والعلمية في العصر العباسي وحاولها أحفاده في زمن محمد على باشا (١) وكان من نتيجة وحدة المصطلح فهم العلوم وهضمها وانتشارها واستعمالها في الكتب العلمية المختلفة حتى أصبحت مالوفة ميسورة لكثرة تداولها ٠

ولابد لى أن أسجل شكوى أستاذين في المغرب العربي ومعاناتهما من المصطلحات التي توضع في مشرق الوطن العربي ، فقد قال الاستاذ الدكتور محمد السويسي زميلى في المجلس العلمي لبيت الحكمة في تونس ٠

(واجهنا مشكل المصطلحات في العربية حين حدث بنا الظروف منذ مايزيد على الثلاثين سنة الى الاشراف على تحرير القسم العلمي في مجلة المباحث والى تدريس أصول الرياضيات والعلوم الفيزيائية) ٠ فقد كانت المشكلة قديمة ٠ حاول الأستاذ وضع مصطلحات جديدة اعتمادا على التراث العربي وما وضع المشارقة من المصطلحات لكنه وجد تشتتا وتفرقا في وضع المصطلح فقال :

---

(١) للمؤسسات العلمية في زمن محمد على باشا وضعت معجما كبيرا في عدة مجلدات سمى قاموس القواميس الطبية ٠ ولا يمكن اغفال ما في مخطوطات التراث العربي لابن الهيثم وابن سينا والكندى وابن جمال وابن وحشية من مصطلحات في مختلف العلوم والفنون ٠

(قام الباحثون في المشرق منذ آمد بعيد بأعمال كثيرة كانت مفيدة ، وأكب العديد من الاخصائيين جاهدين على انشاء مايقابل في العربية ، المصطلحات العلمية الجارى بها العمل ، ولكن هذه المساعى ، كانت مشتتة وكانت نتائجها متباينة مختلفة ، فصار المعجم العربى الحديث ملفقا تلفيقا مصطبغا بعديد من الألوان وهو مائج متحرك يعرض من المستحدثات أفواجا من الألفاظ المشتركة التى قد توازى المدلول المقصود موازاة تامة أو هى لاتوازيه ، والتى تتميز بحسب البيئات وتختلف باختلاف الأشخاص ، فعرب كل أخصائى بعض مصطلحات اختصاصه ، متأثرا باللون الذى طغى على اللفظ المستعمل فى لغة الأصل التى استند اليها وجعلها أساساً فى بحثه فتراكمت المفردات وتعددت لأداء المفهوم الواحد أو لوصف الظاهرة الواحدة ...) (١) .

وقال الدكتور أحمد الأخضر من الجزائر :

(ولو كان المعجميون العرب العصريون قد اهتموا بتأليف معاجم متخصصة علىمنوال أسلافهم (كابن سيده فى مخصصه) لأدركوا اضطراب المصطلحات الذى لايقبل بحال من الأحوال، وماكان علينا أن نقوم بهذا العمل الجبار لاعادة تنظيمها اليوم ...) (٢) .

الخاتمة :

ان توحيد المصطلح فى لغتنا المعاصرة ضرورة من ضرورات حياة العرب الفكرية المعاصرة لاثبات الذات فى الوطن لأن التطور العلمى فى هذه المرحلة الدقيقة من مراحل

---

(١) مؤتمر تعريب التعليم العالى فى الوطن العربى ، بغداد ١٩٨٠ ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٨٩ .

تطور الحضارة السريع لابد له من اعداد متقن ومنسق بعد أن أصبحت البشرية عالما واحدا مشتركا فى كل قضاياها العامة .

واللغة العربية هى الأداء القوية التى تربط الأقطار العربية وتسجل تطورها العلمى وتقدمها الحضارى . فمن الضرورى أن توحد مصطلحاتها بعد أن اصبحت جزءا من الفكر القومى والوطنى لأن ترك الأمور على الغارب سوف يخلق لغات متنوعة لن تمكن الاستفادة منها فى الأقطار العربية الأخرى . وليست القضية اعتزازا بالنفس واعتدادا بالاقليمية انما هى قضية مصير موحد وقضية مستقبل الحضارة والعلوم فى وطننا . فمن الضرورى أن نأخذ الأمور بالجد واحتواء الحضارة الغربية ومواجهتها بفهم علومها ومصطلحاتها .

ان فهم العلوم لايتم بصورة مفيدةوفاعلة فى تطور الفكر العلمى عند العرب الا اذا فهم الباحث العلوم الجديدة فى لغته المعاصرة فقد تقدمت اليابان وطورت علوم الغرب عندما درست العلوم الغربية بلغتها رغم الصعوبات الكبيرة فى هذه اللغة وقد تطورت العلوم الحديثة فى روسية عندما بدأ العلماء يدرسونها باللغة الروسية ، ولم تصل الصين ذات اللغة العجيبة المعقدة الى اكتشاف أو اختراع القنبلة الذرية ومزاحمة الغرب فى صواريخه الا بعد دراسة العلوم المتطورة باللغة الصينية (١) .

كنا ندرس الكيمياء ولانعرف ما يحتويه المصطلح من

(١) لكى تلم باللغة الصينية لابد لك أن تعرف عدة آلاف حرف وقد احسست بصعوبة لغتها عند زيارتى للصين الشعبية ولا شك أن اليابان تعانى مثل هذه الصعوبات ولكن لم تتخل عن اللغة رغم الصعوبة البالغة ولم تكن البلغارية لها حروف حتى وضعها لها كيرل وتيودى .

كميات المواد وكنا نحفظ غيبا المصطلحات العلمية كى ننجح فى الامتحان لأننا لا نعرف بصورة مضبوطة محتويات هذه المصطلحـات العلمية • الطـالب فى الغرب يعرف ما معنى كبريتوز وكبريتات وكبريتيدوكبريتيك ومامقدار الأكسجين والكبريت فى هذا المصطلح •

ان وضع المصطلحات باللغة العربية وتنسيق المعجمات وتوحيدها سوف يخلق جيلا عربيا يفكر بلغته ويعرف أسلوب البحث العلمى ودقائق المصطلح • ومن فهم الأسلوب العلمى فقد تطور فكره فى البحث ووصل الى النتائج الجيدة وأصبح مبدعا • لأن اللغة خير وسـيلة للتأصيل العلمى والفكرى • وبعث الثقة العميقة بالتراث اللغوى الذى عانى من الاتهامات المريرة •

ان الايمان بقدرة اللغة سـبيل الى بعث الثقة بالذات ووسيلة للتأصيل العلمى والفكرى فى الأمة واحتواء الحضارة الجديدة لأن العلم متى أصبح مشاعا يصبح سهلا ومتناولا من أصحاب الحرف ، والأعمال العامة وعلى هؤلاء المعول فى ادارة كثير من أعمال المخترعات الحديثة •

ولابد فى هذا المجال من مراجعة المعاجم التى وضعت لمختلف العلوم والفنون والاستفادة من أصحاب الخبرة فى كل فن والذين عملوا فى وضع المصطلح العلمى • ويمكن اتخاذ الخطوات التالية :

١ ـ عقد المؤتمرات الدورية المتقاربة التى بدأت فى المجامع ـ ولم تستمر ـ لتوحيد المصطلح الذى يضعه المجمعيون قبل أن يطبع فى المعجم الموحد للعلم الواحد •

٢ ـ أن يكون التنسيق مستمرا بين جميع المؤسسات العلمية

والمجامع بتبادل ما وضع من المصطلحات ودراستها وابداء الرأى فى كل مصطلح .

٣ ـ اسهام عدد من اللغويين فى المؤسسات العلمية عند وضع المصطلح . فقد لاحظت آن بعض المصطلحات يضعها العالم الفاضل بعلمه ولكنه بعيد عن الذوق اللغوى والأسلوب العربى فتدخل الألفاظ الأجنبية التى آلفها العالم ويصر عليها لقرب معناها الى نفسه .

٤ ـ من المهم وجود هيئة علمية للتنسيق قادرة على العمل المنظم والحركة السريعة وتملك القدرة المالية والمعنوية فى التنسيق والطبع والنشر .

٥ ـ تحديد معنى المصطلح بوضع تعاريف مطولة واختيار الدقة فى لغة العلم المعاصرة ، وايضاح الدلالة العلمية والتفاعلات التى جاء منها المصطلح لأن الايضاح ضرورة لفهم المصطلح فى أول وضعه والاتفاق عليه .

٦ ـ جمع المواد العلمية من مصادرها العلمية المعاصرة وحذف الاختلاف البين وتقريب وجهات النظر ما بين هذه المصطلحات والتأكيد على دراسة ما وضع فى المشرق العربى والمغرب العربى لاختلاف القواعد الفكرية العلمية بتنوع الجذور الأجنبية التى أخذت منها هذه المصطلحات .

٧ ـ ولا بأس من الاستفادة من المصطلحات العلمية التى وضعت فى زمن محمد على باشا رغم ما فيها من سذاجة وبدائية . وقد وجدت الكتب التى انتشرت فى المدارس مطبوعة أو مخطوطة فى دار الكتب وقد ذكرت جزءا منها .

شكر وتقدير :

وأخيرا أقدم جزيل شكرى وتقديرى للمبادرة الكريمة التى قام بها مجمع اللغة العربية للدعـوة لهذا المؤتمر فان عمله التاريخى خطوة كبيرة في سبيل الوحدة الفكرية للقضاء على التمزق الفكرى فى وضع المصطلح · لأن توحيد المصطلح أقوى قاعدة للنهوض بالعلم المعاصر وتقريب فهمه ونشره بين أكبر عدد من المتعلمين واصحاب الحرف ·· وبالتالى فهو عمل خالد فى الفكر المشتت فى بلادنا العربية ·

وأرجو أن تكون هذه الخطوة العلمية باعثـا لحفز همم المؤسسات العلمية فى كل الأقطار العـربية للسير فى هـذا السبيل ·

وأختتم قولى هذا بالتهانى القلبية لمجمع اللغة العربية ولرئيسه أستاذنا شيخ الفلاسفة المعاصرين الدكتور ابراهيم بيومى مدكور وأساتذتى وزمـلائى أعضـائه وأتمنى لهم أعذب التهانى والعمر المديد والانتاج المستمر ·· بالعيد الذهبى راجيـا أن يكون المجمع منارا يشـع بعلمه ونبراسا يهتدى بفضله وفكرا يستفاد منه وفضـلا يطـور الحضارة المعاصرة ويقدمها حيًّا لجميع الأمة العربية ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

★★★

الفصل السابع

التراث الزراعى عند العرب

التراث الزراعي عند العرب

كان العالم كله يعتمد اعتمادا كليا على المنتجات الزراعية ، وكانت حضارة الانسانية قائمة على الزراعة التي تعتمد على المياه والأرض الخصبة . وقد حبانا الله تعالى في وطننا العربي بكل مايتمناه الانسان من وفرة في المياه وخصب في الأرض . وقد نشأت الحضارة القديمة في العراق ومصر واليمن والشام ومنها انتشرت الى العالم بفضل الزراعة .

ولأهمية الزراعة في التاريخ القديم عزا الفلاح في العراق ومصر تعلمها واجادتها الى الآلهة التي علمتهم أساليبها وصناعة أدواتها وأسلوب الحراثة والفلاحة والحصاد وقد خصصت شريعة حمورابي جانبا منها للزراعة والري . والطريف أنها وضعت عقابا لمن يعذب الحيوانات والماشية . ومن هذين القطرين تعلم اليوناني الزراعة وقد تحدث عنها هيرودتس واسترابون ووصفا أساليبها ومقدار نجاح الزراعة وتقدمها في العراق ومصر .

وقد برع العرب بالزراعة والصناعات التي تحتاجها كأدوات الحراثة والدراسة والتذرية والارواء . وقد بقي الشرق رائدا من رواد الصناعة الزراعية ، ففيه ازدهرت

(*) محاضرة القيت في كلية الزراعة ، جامعة الملك سعود ، الرياض في ١٩٨٣/٥/٢٤ المصادف ١١ رجب ١٤٠٣هـ .

ونشر في مجلة المجمع العلمي العراقي في العدد الأول من المجلد الخامس والثلاثين ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

جنائن بابل وجبال اليمن وغوطة دمشق ووادى النيل . ولما دخل العرب الأندلس نقلوا معهم فنون الزراعة التى طورت حياة الأندلس وأثرت أهله بالخير والحضارة . ومن الطريف أن يحدثنا ابن الفقيه الهمذانى عن تطور الزراعة وتقدمها واختلاف الأثمار فى الانتاج الزراعى فيقول فى (صفة جزيرة العرب) ان أنواع العنب كانت أكثر من عشرين صنفا وقال الفقيه الهمذانى راويا عن محدث (انه يعرف بمدينة السلام نيفا وسبعين نوعا من التفاح ثم عدها وتبسم أخو المتحدث ثم قال كذا وكذا زيادة على ماقال أخوه بنحو أربعمائة نوع وتسعة أنواع ...) وهو دليل على اهتمام الزارع والفلاح بالأرض والأشجار واستنبات أنواع جديدة. وقد أنعم الله على الانسانية كلها بأنواع كثيرة من النباتات والأشجار فقال فى محكم كتابه (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء . فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان (١) دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) (٢) .

وقال تعالى :

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلايشكرون) (٣) .

---

(١) القنوان قال ابن عباس هى العراجين ـ الخضر الطرى الغض المتراكب كالسنابل فى الحنطة والشعير .

(٢) الأنعام : ٩٩ .

(٣) يس : ٣٣ ، ٣٥ .

وقد شجع النبى صلى الله عليه وسلم على الزراعة وحث على ممارستها فقد قال : (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان الا كان له به صدقة) ومن يدرس الصحاح والمسانيد يجد الأحاديث النبوية الشريفة كثيرة فى هذا الصدد •

كما حرص الرسول الكريم على احياء الأرض الموات وجعلها لمن أحياها • وقد سارت الدول الاسلامية فى ضوء هذا طوال حياتها فجعل عمر بن الخطاب الأرض لأصحابها وحرمها على الفاتحين ليستمر أصحابها فى زراعتها ، وقد كانت الدولة تساعد الزارع وتوفر له المتطلبات الضرورية للأرض •

فلو قرأنا كتاب الخراج لأبى يوسف والأحكام السلطانية للماوردى وغيرهما من كتب التراث الاسلامى التى تتحدث عن الزراعة لوجدنا أنظمة الزراعة فى الاسلام تحث على تشجيع الفلاح • فهى لاتأخذ الخراج من الأرض الا مرة واحدة وان زرعت مرات عديدة ، وتعينه متى أصابه الضرر أو أصيبت زراعته بالتلف أو قضت عليها الآفات والحشرات • وماكانت تطالبه بضرائب عن العلف والبقل والخضروات والقطن والكتان •

لذلك ازدهرت الزراعة وتنعم الناس بالخيرات بعد أن أخذت الدولة الاسلامية على عاتقها حفر الأنهار والترع وبناء الجسور والقناطر •وبلغ نظام الرى فى الدولة الاسلامية الذى ساد الشرق والغرب مرحلة من دقة الهندسة واحكام الصناعة مازال مضرب المثل • فكانت بعض الأنهار تعبر نهر دجلة الى الضفة الأخرى بعبارات محكمة الهندسة واتخذت بعض هذه الأنهار أداة لنقل البضائع والمواد الأولية والزراعية الى المدن المختلفة •

ثم ان الدولة كانت مسئولة عن تنظيف الأنهار وتشذيبها

وتخليصها من الأوشاب والأوساخ والأعشاب وصيانتها لتكون المياه سريعة الجريان ولتسهل مهمة الزراع والفلاح ·

وكان الناظر الى أراضى العراق من بعيد يراها سوداء من كثافة الخضرة حتى سميت بأرض السواد فما تخلو الأرض من شجرة أو حقل أو بستان أو حديقة · لأن وسائل الرى كانت متقنة ووصول المياه كان سهلا ·

وهل ينسى التاريخ الزراعة القديمة وأسلوب رى الجنائن المعلقة ·

التاليف والمؤلفون :

وقد ألف العرب عدة كتب فى الزراعة والفلاحة دلت على الأسلوب العلمى والعملى الذى صاحب هذه المؤلفات · وقد طبع بعضها ومازال بعضها مخطوطا وقد تحدثت عن النباتات بأنواعها وزراعتها وغرسها وفسائلها وبذورها وأساليب التقليم والتلقيح والتشذيب وخصصت أجزاء للأزهار والرياحين دلت على مقدار رهافة الذوق وحسن الاختيار · وبحثت هذه الكتب فى الأرض وأنواعها وأشكالها وألوانها وخصائص هذه الألوان والأنواع وتحدثت عن السماد وأنواعه الحيوانى والنباتى وفوائد الأسمدة ومقاديرها لكل شجرة أو نبتة أو زهرة كما وجدنا الزراع يفرقون بين أنواع المياه وأثرها فى سقاية النباتات مثل مياه الأمطار والآبار والعيون والأنهار دون أن يملكوا الوسائل التقنية أو المختبرات التى وجدت فى هذا القرن ·

وفى الأندلس وصل علم الزراعة مرحلة متطورة بمداجراء التجارب العملية التى كان يجريها الفلاح المسلم على أنواع الأشجار والأزهار · ولم يكتف بما كان لديه من أشجار وبذور

وانما استورد بذورا لنباتات لم تكن تزرع في الأندلس ، جلبها من الشرق الأدنى وأخذ يقارن بين أصنافها المختلفة وخصائصها المتباينة واهتم بالنباتات الطبية اهتماما واضحا .

وقد خصص عبد الرحمن الناصر حديقة خاصة لزراعة النباتات الطبية وأرسل في طلب بذورها من كل مكان في العالم وزرعها في هذه المزرعة وتتبع نموها وراقب فوائدها وأجرى عليها الأموال للعناية بها وتطويرها .

وقد كان العلماء يرحلون من مكان الى آخر للاستفادة من الخبرات فقد ذهب ابن البيطار من الأندلس الى المشرق وكان يناقش العشابين والزراع والصيادلة في زراعة النباتات الطبية حتى عين رئيسا للعشابين والصيادلة في مصر واستقر مع تلميذه ابن أبي أصيبعة وعرف كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .

ومن الكتب التي ألفت في الزراعة والفلاحة والحيوان مالايمكن أن أحصره فهي ماتزال مخطوطة في أكثرها ولكن يمكن أن أذكر نماذج منها ، ومنها يستدل على مقدار العناية بالفلاحة واهتمام الزارع المسلم بها وبالحيوانات المختلفة التي كانت تخدم حياته .

١ ـ الفلاحة : لابن البصال (محمد بن ابراهيم) سمى البصال نسبة الى زراعة البصل وطبع كتابه محققا في تطوان سنة ١٩٥٥ وهو رائد من رواد فن الزراعة التطبيقية .

٢ ـ كتاب الفلاحة : لابن الاشبيلي .

٣ ـ الفلاحة الأندلسية : لابن العوام (علي بن محمد) وقد

قام بنفســه بتجارب زراعية وأبحاث فردية سجلها فى كتابه ٠

٤ ـ الفلاحة : لابن الحجاج (أحمد بن محمد) (١) ٠

٥ ـ الفلاحة النبطية : لابن وحشية وهو معلمة زراعية فى المياه والزراعة وأوقاتها وهندستها ولايهمنا نســبة الكتاب بقدر مافيه من علم ٠

٦ ـ كتاب النباتات : أبو حنيفة الدينورى طبع فى لايدن ١٩٥٣ ٠

٧ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات : للقزوينى ٠

٨ ـ زهرة البستان ونزهة الأذهان : لأبى عبد الله محمد الغرناطى (ابن حمدون الاشبيلى) ٠

وامتاز الكتاب بالتجربة والتطبيق وشدة الملاحظة فقد كان المؤلف يذكر تجاربه الخاصة ولم يكتف بذلك انما أراد الاستزادة من معارفه فذهب الى المشرق ـ كما نذهب نحن الى أمريكا والغرب ـ واحتك بالزراع بل وصــل الى بحــر الخزز وعاد الى الأندلس مطبقا جميع ماشاهده واستفاد كثيرا من سفراته ٠ وللأسف لم يجـد البــاحثون نسخة كاملة منه فمازال الكتاب كثير المعلومات يستفيد منه الزارع المعاصر وبخاصة دراسته للأرض والماء والبذور والفسائل والسماد بأنواعه الحيوانى والنباتى وزراعة البقول والخضر والأزهار والرياحين ٠

ولم يقف التأليف عند فترة من الزمن أو عهد من عهود الاسلام انما وجدنا من ألف متأخرا مثل عبد الغنى النابلسى

---

(١) حقق (المقنع فى الفلاحة) لابن حجاج الاشبيلى صلاح جرار وجاسم أبو صفية باشراف المؤرخ المعروف عبد العزيز الدورى ونشره مجمع اللغة العربية الأردنى ٠

الذى توفى سنة ١١٤٣ هـ وطبع هـذا الكتاب فى دمشق سنة ١٩٧٧ وقد سماه (كتاب علم الملاحة فى علم الفلاحة) والكتاب تجربة حقلية بأسلوب علمي اتخذ فيه وسيلة اللمس والشم والذوق والنظر اذ هى أدوات المختبر العلمى للفلاح وبها يختبر الوسائل والأدوات لمعرفة الأرض وغرس الشجر والزهر والتقليم والتطعيم وفحص الاختلافات بين البذور والبقول ·

وقد وجـدت بعض حـكام اليمن يؤلفون فى الزراعة والبيطرة مساهمة فى نشر الوعى الزراعى وتثقيف الزراع فقد ألف معهد الدين عمر بن يوسف الرسولى المتوفى سـنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) عدة كتب فى الزراعة والطب والفلاحة فقد ورد فى ترجمته أسماء الكتب التالية :

١ ـ الثقافة فى علم الفلاحة ·

٢ ـ الجامع فى الطب ·

٣ ـ ملح الملاحة فى معرفة الفلاحة ·

٤ ـ المعتمد فى الأدوية المفردة ·

٥ ـ المغنى فى البيطرة (١) ·

وقد ألف عباس بن على بن داود (الملك الأفضل) المتوفى (٧٧٨ هـ ـ ١٣٧٦ م) · (بغية الفلاحين فى الأشجار المثمرة والرياحين) ذكر فيـه أنـواع الأراضى والميـاه والزراعة وأوقاتها والأشجار وغرسها وآفاتها وخزن الحبوب · ولا يمكن أن أقف على جميع ماكتب عن الزراعـة والبيطرة وتربيـة الحيوانات ولكنى أريد أن ألفت النظـر الى أن العـرب فى

---

(١) حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ، تاليف عبد الله الحبشى ١٩٧٩ بيروت ص ١١٥ ·

مختلف بلادهم وعلى مستوى الطبقات قد اهتموا بالزراعة وأولوها العناية الكافية ويمكن أن نذهب الى أية مكتبة ونفحص المخطوطات والمطبوعات فستجد صدق ماقلت •

الغرب والزراعة :

وكل ماأتمناه ، وأنا فى حرم كلية الزراعة موئل هذا الفن الأصيل ، أن تقوم بجمع هذه المخطوطات والمطبوعات التى تحدثت عن الزراعة الاسلامية وتخصص لها مكانا فى مكتبتها ان لم تكن قدقامت بالعمل • وأطمع في تخصيص بعض المحاضرات المقارنة بين ما وصل اليه العرب والمسلمون وبين ماوصلت اليه العلوم الزراعية المعاصرة ليعرف الطلاب بأن تراثهم الأصيل لم يترك شيئا علميا لم يدرسه ولتعود الثقة بقدرات الأجداد ثم الانتفاع بالخبرات الزراعية والعلمية القديمة فى بناء زراعى نابع من تربتنا وبيئتنا والاستفادة من الغرب ومعداته وآلاته المتطورة فى تطوير حياتنا الزراعية •

ولرب قائل يقول لماذا لاناخذ الفكر الزراعى الغربى المتطور ونطبقه على الأرض العربية ونترك كل ماجاء به العربى ؟ وجوابى واضح وصريح أن الفلاح العربى المسلم طبق على بيئته ومحيطه خبرته وعرف تربته واستفاد من تجربته من الهواء والماء والشمس والرطوبة كما استفاد الغربى من محيطه • فيجب أن نستفيد من التجارب العربية والغربية فى آن واحد لأن الاختلاف واضح بين الغرب والشرق فى تنوع المحصول وجودته باختلاف المحيط والتربة والمياه •

ولاننسى أن الغرب مدين لنا بكل حضارته وفكره وتطوره العلمى ويكفى أن ندرس علم الزراعة فى الأندلس

فستجدها ماتزال تستعمل الأسماء العربية بفضل زراعة المسلمين وتطور هذا العلم فى بلادهم ٠

وكان من فضل العرب والمسلمين على الغرب ادخال الأدوية الطبية الزراعية التى تطورت فيما بعد الى التحضيرات الكيماوية لأن العرب لم يتركوا شيئا الا ذكروه بل رسمت النباتات الطبية بدقة وثبتت الوانها المختلفة فى مؤلف (رشيد الدين الصورى) ٠

العناية بالحيوان :

ولم تكن الزراعة وحدها مجال عناية العرب والمسلمين فقد كان للحيوان عناية خاصة حتى عند الأدباء والكتاب حسب مصطلح اليوم لأن العالم كان واسع الاطلاع على معارف علمه موسوعيا فى ثقافته فلانعجب ان وجدنا العالم الطبيب خبيرا بالزراعة والزارع خبيرا بالموسيقى واللغة والأدب اذ لم يكن عصر الاختصاص قد بدأ ٠ ففى الحيوان نجد حياة الحيوان الكبرى للدميرى والحيوان للجاحظ وعجائب المخلوقات للقزوينى وسنجد العالم العربى يعنى بالأدب والزراعة والصناعة والحيوان فهو يصف الكائنات الحية فى مختلف رتبها وأصنافها وأشكالها والبيئات التى تعيش فيها سواء أكانت تعيش فى البر أم فى الماء أم كانت برمائية ٠ وبالطبع لم تقسم حسب المفهوم العلمى الحديث فهم يرون كل مايطير من الفراشة واليراعة والطير والخفاش وترتب حسب الحروف الأبجدية ولكنهم لم يتركوا من الحيوانات والحشرات والنباتات شيئا كالنمل والنحل والعقرب والزنبور والحلزون والأسماك وجميع أنواع الزواحف واللبائن الا أحصوها ووصفوها وذكروا فوائدها ومضارها ٠ وبلغوا مرحلة فى الدقة العلمية والوصف الباهر آثارت الاعجاب ٠

وليس غريبا على الباحث المسلم آن يهتم بالحيوان لأنه جزء من حياته فقد ألف الجاحظ (الحيوان) وألف الدميرى (حياة الحيوان الكبرى) وهذان الكتابان مطبوعان ينهل منهما كل باحث فى الأدب واللغة وعلم الحيوان ولكن لابد من آن أذكر (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى) والمؤلف من سلالة أنس بن مالك وولد فى قزوين وغلبت عليه شهرة البلدة وقد سافر الرجل الى الشام والعراق وأصبح قاضيا فى العراق زمن المستعصم وبذلك نجد فى بحثه صدق القاضى وأمانة المؤمن فى تأليفه ٠

فقد درس حياة النبات والحيوان ورتب مؤلفه حسب البيئة التى يعيش فيها الحيوان ٠ فحيوانات الماء تختلف عن حيوانات البر وبالطبع لم يأخذ بنظرة العلم اليوم ولفت نظره حجم الحيوان وحركته وطيرانه ٠ لذلك عد الخفاش واليراعة من الطيور وحسب الحوت والاسماك من نسق واحد لأنه رتبها حسب المعرفة القديمة ٠

ولكن الدقة العلمية فى ابعاد الأساطير والخرافة القديمة خير شفيع له فى البحث ٠ فهو لم يترك حيوانا منالحيوانات أو حشرة من الحشرات سواء أكانت من الزواحف أو اللبائن الا ذكرها ٠

وسارت هذه الدقة فى كتابه لما تحدث عن الأشجار والنباتات والأزهار ٠

فى أوروبا :

وعندما درست فى أوربا وجدتها تتسع بخيرات كثيرة من الأطعمة والمزروعات النادرة وتلتذ بمختلف الفاكهة والخضروات مع أنها لم تكن تعرف شيئا عنها قبل الاحتكاك

بالمشرق العربى والتراث الزراعى الاسلامى • فالأرز والسكر والقطن والزعفران والنخيل والأعناب والخيار والقرع والرقى (البطيخ الأحمر) والبطيخ والليمون والبرتقال والخوخ والمشمش الى آخر القائمة الكبيرة من مفاخر هذه الفاكهة والنباتات لم يكن يعرفها الأوربى البدائى ولم يكن يسمع بها لأنها أنواع لم يرها ولم تقدر مخيلته على تصورها وقد بقيت بعض هذه الأسماء كما جاءت من اللغة العربية أو مع بعض الامالات والتحريف الذى يناسب اللغة التى نقل اليها •

وقد كان للحروب الصليبية فضل على الغرب فقد حملت روح الحضارة الاسلامية الى أوربا •وكان للأندلس أثر كبير في نشر الثقافة الاسلامية الى جانب الفن الزراعى • ومكتبة الاسكوريال خير شاهد على ماوصل اليه فن الزراعة ففيها كثير من كتب الزراعة منها كتاب أبى زكريا الاشبيلى الذى يقف أمام دقة علمه وسعة اطلاعه وتجاربه العلمية الزارع المعاصر مدهوشا لما فيه من نظرة عميقة وتجارب زراعية ناجحة ومعرفة واسعة بأساليب الزراعة وطرق الرى وبناء القناطر وحفر الجداول وتصريف المياه الزائدة وهى أهم خطر يتهدد الأراضى الزراعية فى الوطن العربى هذه الأيام •

جمال الأندلس فى الشعر :

وقد سعدت بزيارة معالم الأندلس وهالنى منظر تلك الحدائق الناضرة والزهور اليانعة بألوانها الرائعة وجمال التنظيم وحسن التنسيق الذى يدهش السائح والزائر والمقيم من فتنة هذا الجمال النشوان ودقة بناء المهندس واحكام البناء وتناسق التصميم وبراعة السيطرة على مجارى المياه للارواء أو للزينة في النوافير والسقي •

ورغم كر السنين واختلاف العصور فقد بقيت هذه الحدائق والبساتين شاهدا خالدا على براعة المهندس المسلم ودقة الفلاح وأصالته فى عمله وبعد نظره فى الزراعة .

وليت شعرى كم أوحى هذا الجمال من قصائد خالدة جميلة اللحن رقيقة الأسلوب ساحرة العبارة حلوة اللفظ وخلدت مشاعر جدنا الفلاح وأحاسيسه وسجلت عواطفه الصادقة حتى خصص لها الأدب العربى فرعا من فروعه سماه شعر الطبيعة وجدنا فيه شعر ابن زيدون وابن هانىء وابن عبد ربه وغيرهم من شعراء المشرق والمغرب الذين أوحت لهم أزهار الرياض وخرير الجداول وهبوب النسمات العذبة جميل الشعر وعذب القصيد .

فمن زار تلك الديار وله حس شاعر لابد أن ينظم فيها أحاسيسه ويكتب أجمل أدبه متأثرا بما حباه الله من فتنة وسحر . ولنقف عند بعض هذا الشعر الجميل لنترحم على أجدادنا الفلاحين فى الأندلس الذين زرعوها وأحسنوا زراعتها فقد قال ابن زيدون :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ومرآى الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله
كأنه رق لى فاعتل اشفاقا

والروض عن مائه الفضى مبتسم
كما شققت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت
بتنا لها ـ حين نام الدهر ـ سراقا

نلهو بما يستميل العين من زهر
جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه اذ عاينت أرقى
بكت لما بى فجال الدمع رقراقا

ورد تألق فى ضاحى منابته
فازداد منه الضحى فى العين اشراقا

سرى بنافحه نيلوفر عبق
وسنان نبه منه الصبح أحداقا

وقال ابن حمديس :

فى حديق غرس الغيث به
عبق الارواح موشى البطاح

تعقل الطرف أزاهير به
ثم تعطيه أزاهير صراح

وقال ابن خفاجة يصور الطبيعة بجمالها النشوان وزهو البهاء الريان والفتنة الساحرة :

وكمامة صدر الصباح قناعها
عن صفحة تندى من الأزهار

فى أبطح رضعت ثغور أقاحه
أخلاف كل غمامة مدرار

نشرت بحجر الأرض فيه يد الصبا
دار الندى ودراهم النوار

وقد ارتدى غض النقا وتقلدت
حلى الحباب سوالف الانهار

وكأن الشاعر يتحدث مع هذا الجمال الزاهى الذى زين بالأزهار والفتنة وبهره سحر المنظر ، وكيف لايتبهر أصحاب الذوق الرفيع والاحساس العميق •

وقال فى حديقة :

وصقيلة الأنـوار تلوى عطفهـا
ريـح تلف فـروعها معطـار

والنـور عقـد والغصـون سوالف
والجـذع زنـد والخليج سـوار

رقص القضيب بهـا وقد شرب الثرى
وشـدا الحمـام وصـفق التيـار

انها فتنة الطبيعة فى زهـو الأزهار واختيال الأشجار وفضل الفلاح العربى الذى خلدها للانسانية متعة وسحرا •

ترى الحديقة ترقص طربا وتلوى عطفها لمداعبة الرياح لها فتلف أغصانها بالرائحة العبقة • فغنى الحمام وصـفق التيار ورقص الفنن ، انها نعمة الله وفضله على عباده بقيت تذكر فضل الفـلاح العربى على كل سـائح زارها وتمتع بجمالها •

وقد ألهمت الطبيعة الزاهرة الساحرة فى الأندلس أحمد شوقى أجمل شعره وأرقه فى قصيدتين مشهورتين فهو يخاطب (نائح الطلح)

لم تأل مـاءك تحنـانا ولا ظمـأ
ولا أدكارا ولا شـجوا أفانينـا

تجـر من فنن سـاقا الى فنن
وتسحب الذيل تـرتاد المواسـينا

أه لنــا نلزحى أيك بأندلس
وان حللنــا رفيفــا من روابينــا

وقد مررت بالأندلس فجعلت منى شاعرا نظمت فيهــا أبياتاً ترجمت الى اللغة الاسبانية والانكليزية فكانت سببا في أن تكون احدى هذه القصائد مقدمة لترجمة كبيرة عن شاعر الأندلس الكبير (لوركا) قلت :

هــذى مــروج بلادى الخضر ... قــد تاه فى أفيائهــا السحر
والمــاء عــذب فى تدفقــه ... عبر القــرون مرقرق غمر
غنت بــه حمــدونة سـلفا ... لما ازدهى فى عقــدها النحر
أين ابن زيــدون ومجلسه ... طــال الغبوق وما دنا الفجر
وأخى يسـير الى ســنابله ... لحصــادها فالزرع مصــفر
وازينب هــذى بمشــيتها ... هــذى الثريا هــذه نــور
عين الجــآذر فى محــاجرها ... والله هــذا الحسن والعطر
غرناطة التــاريخ ذا شجن ... حتى يديك فأدمعى غــزر
ولآلىء الأحبــاب ان نثرت ... ما ما زها اليــاقوت والدر
وصحائف التاريخقد خجلت ... مذ ضاع منها المجد والفخر

وفى القصيدة التالية سجلت الوفاء العربى الأصيل عند الرجل المسلم العربى نحو زوجته ومقدار حبه لها • فقد بنيت الزهراء على اسم الزوجة وكانت من بلاد يكثر فيها الثلج فأراد زوجها أن يكرمها فغرس لها أشجار اللوز لأنها عندما تزهر تبدو وكأنها الثلوج (١) على سطح الأرض ولما وصلتها تذكرت الحكاية فقلت :

---

(١) بناها عبد الرحمن الناصر وحشد لها آلاف العمال يعملون فيها حوالى عشرين سنة فكانت من روائع الفن المعمارى ذكرها المقرى جـ ٢ •

من خطاه مجفلات جاءنى يسعى غريبا
بددت الصمت الرهيبا .
لم يدر دهرى حبيبا .
من أتانى بعد أن صرت ركاما وحجارة
عبثت أيدى زمانى غارة تتبع غارة
حاقد يبغض رمزا كان فى الحب منارة
كنت رمز الأمل العذب وهمسات الأمانى

★★★

جبل القدس شموخا ملأ الدنيا حنانى
قد غرسنا لهم الحب بأنغام حوانى
فسقونا غصص البغض بتدمير الحياة .
من أتانى زائرا بددصمت الحسرات؟ . .

★★★

ليته جاء بكورا ومع الفجر الحبيب
وأنا فوق سرير الفل فى نسج حبيبى
مخملى الدفء ما أجمله دفء القلوب
ونوافيرى جذلى بين كأس وحبيب
كنت قارورة أشواق والهام وطيب
كنت للحب مروجا عطرت كل الدروب
أين ظلى ومياهى
وأغاريد الطيور ؟ . .
يرغم الوحى بأرض فغدا العيى خطيبا
ألهم العازف حبى فيغنيه ضروبا

★★★

أنا يازهــراء قد جئت من الشرق القصى
عربى جاء يحدو بغناء عربى
ســاقه الشوق لكى يستاف فى هذا الندى
ويــروى ظمــأ النفس فصــلى وتبتــل
فجثــا فــوق أريج وعــلى الترب تمهــل

★★★

أنا لو أسطيع قد سرت على الأجفان فى شوق العميق
وزرعت الحب أزهارا على طول الطريق
أبيض السحر كنور اللوز كالثبج الحقيقى
خالدا مثل خلودك
ساحرا سحر نشيدك

★★★

لولا جمــال الأندلس وذكــريات المجــد العربى التليد وتألق الطبيعة بجهد الفــلاح العربى الذى زرع أشــجارها ونسق حدائقها لما وجدنا مثل هذه القصــائد الرائعة التى سجلت نبضات الشعر والشعراء . ولولا عناية الزارع العربى المســلم لما خلدت تلك الحــدائق مثل جنة العريف والحمراء والزهراء . انها ثمرة الفن الزراعى الأصــيل الذى حرص عليه الفلاح المسلم فى تلك الديار .

المكتبة الزراعية :

اهتم العرب بالعلوم فى مختلف أنواعها وقد كان الكاتب المسلم دقيق الملاحظة عملى النظرة واقعيا فى تسجيل ما يراه وقد ســجل لنا كتبا عن النخل والعشب والكلأ والأشــجار والكروم بأنواعها وأشكالها المتنوعة ومحل غرسها وأماكن تكاثرها وما تحتاجه من عناية ورعاية -

وقد اهتم بالنخلة اهتماما واضحا لأنها كانت تعطيه الشيء الكثيرحتى سماها سيدة الشجر · وقد حققت بعض هذه الكتب ونشرت من المستشرقين ومن العرب وتحتاج الى وقت طويل لدراستها ·ومن الذين اهتموا بالتأليف النضر بن شميل وأبو عمرو الشيباني والاصمعي والزبير بن بكار وابن سيدة وان جاءت اكثر هذه الكتب مهتمة بالجانب اللغوى الا أنها أعطتنا مدى الاهتمام الواضح بالزراعة والزرع · وقد حصر الزميل الدكتور حسين نصار فى دراسة شاملة كتب النبات فى بحث نشر فى مجلة مجمع اللغة العربية فى دمشق ·

وللأسف ان المكتبة الزراعية ضاع الكثير منها فى غزو المغول للعراق وفى المصائب التى صبتها الصليبية على المسلمين فى الأندلس · فقد أحرقت الكثير منها وكانت تقضى على كل كتاب مكتوب باللغة العربية وينال صاحبه من العذاب ألوانا وما بقى منها قد ذكرنا جزءا منه ما زال زاخرا بكل ما يفيد الزارع والفلاح ومهندس الرى ففيها تحديد لأوقات الزراعة وغرس الفسائل وشتلها وريها وسمادها ونظام هذا الرى وأشكال الأغراس حتى دخلت الأسماء العربية فى تاريخ الأندلس الزراعى وحملت المنتوجات الزراعية الأسماء العربية وبخاصة المزروعات التى لها علاقة بالطب وما لها علاقة فى علاج الأمراض كما أسلفنا فقد عرف الحنضل والحناء والبان والكافور والكركم والكمون والذرة والقطن والسكر والحلفاء والحرمل والياسمين والجت (البرسيم) والليف والنارنج والزعفران والسماق والسنبل والتمر والتمر هندى والقائمة طويلة جدا · ويمكن لمن يريد أن يتتبع هذه الأسماء العربية فى اللغة الاسبانية أن يجدها فى سهولة ويسر ·

وقد بقىَ الفلاح المسلم رائدا من رواد الزراعة واكثار النباتات واستخراج العقاقير سواء آكان فى المشرق آم فى المغرب وكان له فضل كبير فى استعمال كثير من هذه النباتات فى الأدوية الطبية • ويحاول الطب المعاصر اليوم دراسة آثر هذه النباتات التى جاء ذكرها عند ابن زهر وابن البيطار وبالفعل استعمل الطب الحديث جزءا منها فى العلاج الطبى ووجدها ناجعة ناجحة •

والطريف أنى لما سافرت الى الصين ذهبت الى الصيدلية فوجدت الصيدلانى يخير المريض بين الأعشاب التى وضعها فى أدراج مرتبة منسقة وبين الادوية الحديثة وبالفعل احتجت الى بعضها فاعتمدت على طب الأعشاب فكان أسرع أثرا وأكثر أمنا فلماذا لايقوم الصيدلانى العربى بمثل مايقوم به الصينى فى وطنه وفى نباتاته ؟

ان علم الزراعة الذى يذهب لدراسته آبناؤنا الى أمريكا وأوربا ليعودوا بعدها فخورين بشهاداتها ودرجاتها العلمية له أصل اسلامى عربى طورته أوربا وزادت فيه حسب حاجتها ومحيطها • وليس فى الدراسة فى أوربا من ضير ،ومن الضرورى الاستفادة من النظريات الجديدة والتجارب التى أجراها العلماء • ولكن المهم أن يستفيد طلابنا وأساتذتنا من العلوم الزراعية والقيام بالتجارب فى أرضنا ومحيطنا والأسمدة الموجودة لدينا ونظام الرى القديم فى الوطن العربى لأنها تلائم هذه الأرض وكانت نتائج تجربة عملية طويلة •

وحبذا لو قام فريق من هؤلاء المختصين بنشر وتحقيق هذه الكتب ومقارنة هذه العلوم الاسلامية بالعلوم الحديثة وبخاصة أن بعض أجزاء من الوطن العربى لها تاريخ عريق

فى الزراعة مثل العراق والشام واليمن ومصر ووصلت الى مرحلة استخراج أنواع متباينة من الفواكه والأشجار • فقد مر بنا أن أنواع التفــاح زادت وكثرت آشـكالها وطعمها وألوانها وقد حاولت أن أحصى فى العراق أنواع التفاح فلم أجدها تزيد على عدد أصابع اليد فأين ذهبت جهود الفلاح وتجاربه •••؟ ومامعنى استنبات هــذه الأنواع الفريدة سواء أكانت من التفاح أم العنب• أليس معناها وجودتجارب علمية دقيقة • وأن هناك تطورا حضاريا ورهافة فى الذوق ورفاهية فى العيش • ولعل من الكتب التى أتمنى أن تحقق (كتاب الفــلاحة النبطية) الذى قال عنه الزميــل الدكتور (صالح أحمد العلى) ••• انه كتاب ضخم لايــزال مخطوطا وفيه معلومات عن المحاصيل الزراعية الرئيسة فى العراق وأنواع بعضها ولكنه لم يستوعب كافة المحاصيل •• وقد ذكر ابن البيطار فى كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية المحاصيل منقولة عن كتب النباتات التى سبقته والتى ألفت قبله فى الطب التى عثر عليها كما ذكر محمود الدمياطى فى (معجم أسماء النباتات) جميع المحاصيل التى ذكرها ابن البيطار وذكر اسمها العلمى أمام الاسم العربى •

وكان الطبيب العربى يذكــر أماكن العقاقير ويقــوم باحصــاء عام لها لكى يســتفيد منها عند الحاجة فهو يعرف مكان تكاثرها وزرعها ، فقد حدث يونس الصيدلانى عن ابن الفقيه الهمدانى بأنه أحصى ماعمل من العقاقير النباتية على سواقى الأنهار وأدخلها فى الأدوية التى يمكن الاستفادة منها فى العلاج الطبى •

وقد ذكر ابن الفقيه بأن العقاقير والأدوية كانت سببا فى تخليص المرضى من العذاب الذى يعانى منه المريض مع

آثار الأمراض وأوجاعها والأسقام وآلامها (التى تسببها هذه الأمراض • وأثر كل نبات فى ازالة المرض والكميات التى يعالج فيها وهو خير دليل على أن العرب كانوا أصحاب تجربة عملية ••• وقد قال قدرى طوقان ••• ان خير ما أهداه العرب هو الاهتمام بالتجربة والحث على اجرائها مع دقة الملاحظة ••• وقد طالب جابر بن حيان الذين يعنون بالعلوم الطبيعية ألا يحاولوا عمل كل شيء مستحيل أو عديم النفع وعليهم أن يعرفوا السبب فى اجراء كل عملية ••)

ولاشك بأن الغرب وأمريكا قد وصلا الى مرحلة متطورة فى الزراعة وقد اخضعت الى تجارب عملية متقدمة بفضل الآلات الجديدة وأسلوب استعمال هذه الآلات فى الرى والزراعة والحراثة والحصاد واستنبات أنواع جديدة وأشكال غريبة لم تكن معروفة • وقد ادخلت التقنية الحديثة عليها فى تطوير أنواع البذور واحداث طفرات للحصول على نباتات جديدة تلائم البيئة الغربية وحاجات الفرد اليومية فى الحجم واللون والطعم وتقاوم الأمراض والآفات الزراعية وحفظ النباتات بعيدا عن الاصابة بالأمراض وباطالة زمن تخزين البذور وانتخاب الأنواع الجيدة منها •

وان العلم الحديث بدأ فى استعمال الأشعة فى تطوير أنواع النباتات والأشجار والخضروات لتلائم حاجة المستهلك وتغريه بلونها وحجمها أو شكلها الخارجى وطعمها الداخلى • والقضاء على الخلايا التى تؤدى الى النمو غير المرغوب • كما تطورت أساليب القضاء على الحشرات الضارة والآفات الزراعية التى تفسد المحاصيل أو تعيش عليها بأساليب جديدة وبطرق حديثة •

الذى أرجوه أن يكون المهندس الزراعى الذى تعلم علوم

الغرب واستفاد من علمه قد انتفع من تجارب آجداده وبراعة المسلمين الزراع الأوائل فان هذه التجارب نابعة من حاجات البيئة ودراسة المناخ والأرض والتربة جيلا بعد جيل وله أن يحكم بعـــدها بمقدار تطور هـــذه العلوم عند الغرب فى سبيل تطوير الزراعة وعلم الحيوان فى الوطن العربى ، ولأن حاجات الغرب الزراعية وتجاربه تتحكم فيها طبيعة الغرب من هواء وأمطار وقلة ظهور الشمس فقد استفادوا بالتجربة من آثار الطبيعة وعرفوا كل شيء عن المناخ والرياح والأمطار والاسمدة والرى عندما بدآوا فى الزراعة • فلماذا لا نطبق نحن تجاربنا على الزراعة ؟ وأخيرا مما يثلج الصدر ويفرح النفس أن المملكة العربية السعودية قد نجحت فى زراعة كثير من المحاصيل الزراعية والخضروات وبخاصة الحنطة • وقد بشرنا بأن المستقبل سيكون فى عون الفلاح فى الاعتماد على المزروعات الداخلية والاستغناء عن الاستيراد من الخارج وتلك نظرة سليمة عميقة الجذور لأن الامة التى تستورد ما تأكل لن يكون لها مستقبل بين الأمم المتقدمة •••

وأسأل الله أن يأخذ بيد العاملين جميعهم ••

والسلام عليكم ورحمة الله

مصادر متنوعة للاستفادة منها

فى البحث غير ماذكر

١ ـ علم الفلاحة عند المؤلفين العرب ٠

خوس مارية ميـاس بيكروبا تعريب عبـد اللطيف الخطيب.، تطوان ١٩٥٧ ٠

٢ ـ عبقرية العرب فى العلوم والفلسفة ٠

عمر فروخ ـ بيروت ١٩٦٩ ٠

٣ ـ العلوم العملية فى العصور الاسلامية ـ عمر رضا كحالة ، دمشق ١٩٧٢ ٠

٤ ـ العلم عند العرب واثره فى تطور العلم العالمى ٠

ألدو مييلى ترجمة عبد الحليم النجـار ومحمد يوسف موسى القاهرة ١٩٦٢ ٠

٥ ـ ابن البصال رائد الفن الزراعى الحديث فى الأندلس٠

جعفر خياط مجلة المجمع العلمى العـراقى جـ ١٥ ـ ١٩٦٧ ٠

٦ ـ كتاب الفلاحة لابن بصال ٠

جواد على مجلة المجمع العلمىالعراقى جـ ٦ ـ ١٩٥٨٠

٧ ـ علماء العرب الأندلسيون ٠

محمد عبد الله عنان مجلة العربى العدد ٤ سنة ١٩٧٠ الكويت ٠

٨ ـ تأثير العرب والعربية فى الفلاحة الأوربية ٠

مصطفى الشـهابى ـ مجلة مجمع اللغـة العـربية ـ
دمشق ج ٢٦ سنة ١٩٦١ ٠

٩ ـ كتب النبات : حسين نصار ٠
مجلة المجمع العلمى العربى ، دمشق ٠

١٠ ـ مجلة المورد العدد الرابع مجلد ٦ سنة ١٩٧٧ (عدد
خاص عن العلوم عند العرب) فيه عدة مقالات منها :

١ ـ عجـائب المخـلوقات : عـزين على العـزى ٠

٢ ـ علم الزراعة والنبات من خـلال كتاب الفلاحة
لابن البصال ٠ عادل محمد على

٣ ـ الهندسة الزراعية عند العرب ٠
سند السيد باقر الفحام

★★★

الفصل الثامن

التعبير عن النفس فى الأمثال العربية

التعبير عن النفس

فى الأمثال العربية

المثل هو الصورة الصادقة لحياة الشعوب والأمم ، ففيه خلاصة الخبرات العميقة التى تمرست بها عبر السنوات الطويلة من حضارتها ،وهو الخلاصة المركزة لمعاناتها وشقائها وسعادتها وغضبها ورضاها• نجد فىطياتها مختلف التعبيرات التى تمثل حياة مجتمعها وتصورات أفرادها بأساليب متنوعة ، وطرق متعددة ، كالسخرية اللاذعة والحكمة الرادعة •

ولاتختلف رغبات الانسان وهمسات روحه فى أمة من الأمم عن غيرها الا بمقدار الاختلاف الناتج عن البيئة الطبيعية والثقافة العامة والتجربة الفردية ، وفى الامثال تعبير واضح عن النفس البشرية وتطور حياة المجتمع ونمو الحياة التاريخية •

ويحتاج المثل العربى الى دراسات متعددة الجوانب لتسجل تطوره الحضارى ، والعوامل النفسية التى دعت الى ضربه ليكون سجلا للنفس العربية عبر تطورها التاريخى والروحى •

ولن أكون من علماء النفس فى مقالى هذا انما سوف أحصره بالسلوك الفردى والتصرف الشخصى الذى انعكس على المجتمع العربى لأن ضرب المثل لم يأت الا رد فعل عميق

لما فى النفس العربية من أحاسيس ومشاعر نتيجة للمؤثرات الشعورية التى اختفت فى العقل الباطن فجاء سلوكه تعبيرا عن عمق المؤثرات التى دعت الى ضرب المثل أو الحكمة ٠

ولاأريد بالسلوك الفـردى التصرف الانسانى للأعمال الانعكاسية التى تصدر بغير ارادة الفرد ودون وعيه ودون تأثير العقل الواعى ، فان هذا من صـفات الحيـوان الذى لايعقل ، ولأن أفعاله تأتى بصورة غريزية وتصرفه يكون بدون ارادة ٠

ان التصرف الواعى يختلف اختلافا بينا من انسان الى انسان آخر ولو كانت تجاربهما متطابقة لأن اشتراك العامل الانساني ليس معناه تطابق الأمثال فى الشعوب كل المطابقة وان تقاربت فى كثير منها ٠

ان عمق التجربة عند أمة قد يختلف عن أمة أخرى تبعا لاختلاف التجارب الفردية للانسان فى المجتمع وتبعا لعاداته وتقاليده وأسلوب حياته ، لأن الأمثال تتغير بتبدل البيئات والتجارب الفردية والاجتماعية ٠ فالأمثال التى تمتدح الكرم قد لا تروق لشعب عاش فى جـوع وفاقة وشـهد الآفات ٠ والأمثال التى تمتدح الفروسية والشـجاعة قد لايستسيغها شعب أحب الهدوء والدعة وانصرف الى ذاته الفردية وعكف على ملذاته الخاصة ٠

ومن دراسة المثل العربى نجده متسقا فى كثير من حكمته وموافقا للطبيعة البشرية والسلوك الانسانى ٠ والاختلافات ضئيلة بين الدنيا العربية رغم اتساع الرقعة وتطور حياة كل قطر من أقطاره واختلاف التجارب الجزئية فيه لأنالمظاهر الانسانية والمثل الاجتماعية التى أحبها العربى فى صحرائه

تطـورت وتبـدلت ولكنها في جـذورها نابعـة من النفس الانسانية كالغضب والحب والرضا والحزن .

وفي هـذه الدراسـة لايمكن تتبع جميع الاسـتجابات النفسية والدوافع التي دفعت الى ضرب المثل ولكن سنمر على بعضها ونترك سائرها الى فرصة أطول والى وقت أرحب .

الحب والصداقة :

من أبرز مظاهر السلوك الأنساني في جميع المجتمعات الانسانية على اختلاف عناصرها وتباين لغاتها وتباعد أقطارها، ظاهرة الحب ، لأنها مرتبطة بالحياة وباستمرار الجنس البشري . فنجد المحب يتغاضى عن عيوب محبوبه لأن وجدانه ومشاعره وأحاسيسه تريد أن ترى المحبوب في أجمل الصور وأحلاها ولايتمنى المحب الا أن يسعد الحبيب ويرضيه ، فهو لا يرى في أعمـاله الا الحسـنات وان كل تصرفاته سليمة صحيحة وان كانت هذه التصرفات بعيدة عن المنطق والواقع لأن المشاعر العميقة غلبت العقل ، فلم يعد قادرا على التعليل ووضع الأمـور في الميزان الطبيعي الذي وضـعه النـاس وتعارفت عليه التقاليد .

ولا أعني بالحب الغريزة الجنسية بذاتها التي تحـدث عنها فرويد ، انمـا أريد سـعادة الانسان بعواطفه البريئة وأحاسيسه في من يحب لأن هذه الأحاسيس تمده بالرضـا والقوة والنشـاط الروحي وتحجب كل مساوىء المحبـوب وأغلاطه وبهذا جاءت الأمثال :

ان الهوى شريك العمى (١)

---

(١) مجمع الأمثال ص ٨١ .

حبك الشيء يعمى ويصم (١)

أى انه يخفى مساويه ويصم عن سماع العدل فيه ومثله :

حسن فى كل عين من تود (٢)

ومن أبرز مظاهر الحب والصداقة بين الناس الحنان المتبادل والرقة الظاهرة فى التصرفات واللطف فى المعاملة وصدور تعبيرات نفسية عن الحالات الوجدانية للانسان كالفرح باللقيا والابتسام عند الحديث الجميل والغيرة عليه وبخاصة اذا كانت أنثى فهى أكثر غيرة من الرجل حتى قال المثل :

لب المرأة الى حمق (٣)

فان شدة هذه الغيرة أعمت المرأة وأساءت تصرفاتها وفقدت التوازن الاجتماعى من أجل الاحتفاظ بالرجل حتى أصبحت هذه التصرفات حمقاء .

وعندما أراد العربى أن يصف شدة الحب ورقة الحنان وجد فى الطير المثال الجميل الذى يعبر به عما يعتور نفسه من حنان فقال فى معاملة المحب للحبيب :

زقه زق الحمامة فرخها (٤)

وعندما خشى العربى من الملل النفسى الذى يسيطر على الانسان من كثرة الوصال ومداومة اللقاء عاد الى العامل النفسى لابقاء الحرارة وامتدادمة الشوق والحب ولدفع الملل

(١) مجمع الأمثال ص ٢٠٥ .
(٢) م . ن ص ٢٠٥ .
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٩ .
(٤) مجمع الأمثال ص ٢٣٧ .

والضجر ، لأن البعاد المؤقت بين المحبين يؤجج الحب ويستديمه وهذه عادة مألوفة الآن فى الغرب فان السيدة المتزوجة تأخذ أجازة سنوية تبتعد فيها عن زوجها كما يأخذ رب الأسرة مثل هذه العطلة حتى يقتل الملل الذى يعانيه من طول الزواج وعندما يعود بعد فترة يجد احساسا يغاير احساسه الأول ورغبة فى اللقاء وادامة الوداد ، وقد عبر المثل العربى عن هذه الظاهرة النفسية بقوله :

الهوى من النوى (١)

واغتراب تتجدد (٢)

ورب ثاو يمل منه الثواء (٣)

وليس أمض على نفس المحب من الهجر فقد أكثر الشعراء والكتاب من لعن الهجر وتبرم به المحبون رغم أن الهجر يؤجج الحب ويزيده اشتعالا ولعل الخوف من الفرقة الدائمة هو الذى يملأ قلب المحب جزعا وقد يعبر العرب تعبيرا جميلا عن هجر الحبيبة دارها أو حبيبها فقال المثل :

من شم خمارك بعدى (٤)

ويلجأ المحب الى ابقاء الذكريات الحلوة واللحظات السعيدة عندما يريد أن يثير حنان الحبيبة لأن الذكريات العذبة تغطى على كثير من الأغلاط وتعيد الحبيبة الى ساعات الرضا واشتداد الأوار وبعدها تبدأ المنازلة باللفظ الجميل والعبارة المنتقاة حتى يصفو قلب الهاجر ويعود الى المحب . ولم

(١) مجمع الأمثال ٢ : ٣٦٧ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) الشطر الأول : آذنتنا ببينها أسماء .
(٤) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢٦٧ .

يجد العربي تعبيرا عن اثارة الحب والرقة أبلغ من الناقة حين تدر لبنها بعد الايناس فقال المثل :

الايناس قبل الابساس (١)

وأجمل حنان يملأ النفس سعادة هو حنان الأم على ولدها ٠ عبر المثل العربي عن اللطف والعطف في حياته العامة بها فقال :

حرك لها حوارها تحن (٢)

وقد وجدنا العقوق من الأبناء للآباء ولكن حياة العرب لم تخل من أم بلا حب ولا رقة ولا حنـــان تعامل بها ولدهـــا فتهجر الأم ابنها ولاترعاه ولاتحدب عليه فقال :

ضبئر رؤم خير من أم سؤوم (٣)

البغض والعداوة :

مهما تقدم الانسان فى الحضارة وشذبت طباعه ولانت جوانبـــه بالثقافة والعلـــوم والآداب والفنون فلن يقدر على اخفاء غريزة العداء والبغض فى نفسه فقد بقيت فى كيان الانسان منذ عصوره الموغلة فى القدم لأن النفس الانسانية تحب الطموح والتبدل والتغيير لأن وجود المعوقات أمام رغبات النفس وحجب ما ألفته عنها يثير غريزة الكراهية والعداء ضد تلك المعوقات ٠

وقد يكون العداء فرديا لسبب خاص او لتجربة ذاتية او يثار البغض والعداء من اختلاف المثل والديانات وتباين

---

(١) الميداني ص ٦٢ ٠

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٠ ومثله حوارها تقر ص ٣٠٤ ٠

(٣) مجمع الأمثال ص ٤٦١ ٠

الغايات الفكرية والطائفية او البلدانية ، ولكن مهما كانت دوافع البغض ومسبباته فيجب ان نعترف بوجوده وبالتعبير النفسي عنه ·

وقد تبدو تعبيرات الكراهيــة والبغض بوضــوح عــلى السمات الخارجية او بأسلوب التعامل الانساني وقد يصدر تعبيرا لا اراديا عن كوامن النفس فيكون الانسان مربد الوجه مغبر الملامح متجهم السمات ، وقد عبرت النفس العربية عن هذه الحالات بالأمثال التالية :

شاهد البغض اللحظ (١)

والبغض تبديه لك العينان (٢)

واذا فرح الجنان بكت العينان (٣)

واذا اشتدت الكراهية وزادت روح البغض والعداء في النفس تتحول التعبيرات الى اعمال العنف والقسوة وســوء المعاملة ، فيقول المثل :

قشرت له العصا (٤)

لبست له جلد النمر (٥)

ففي الكناية تعبير عن عميق الألم والبغض باظهار العداء ومهاجمة الانسان المكروه ومكاشفته بما يجول في النفس اذا لم يقدر على كبح جماحه وايقاظ غضبه وتعويق انفعالاته ·

ولابد أن الانسان قد خرج في بغضــه الى حد الغضب

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٧٥ ·
(٢) المصدر السابق ص ٨٠ ·
(٣) المصدر السابق ·
(٤) الميداني ج ٤٨/٢ ·
(٥) المصدر نفسه ص ١٢٩ ·

وثورة النفس وحاول آن يسيطر على أعصابه وكبح ثورته عندما رأى من يحقــد عليــه ويبغضــه آكبر منه قوة وأبعد نفوذا ، فخشى العاقبــة وآراد آن ينفس عن النفس المكروبة الغضبى . ولاحتواء ثورته لابد من عمل شيء ، فرسم المثل العربي الانسان الغاضب وهــو يخط الأرض بســهمه بقوة وانفعال فتتكسر من شدة انفعاله السهام على قوتها ومتانتها وتتحطم مداخلها ، فقال المثل :

انه ليكسر على ارعاض النبل غضبا (١)

ومثل هذه العوامل النفسية وسيطرة العقل على الانفعال والثورة يقول المثل :

أنه ليحرق على الأرم (٢)

وهل هناك أشد غضبا ، من ان ينفس الانسان عن حقده وبغضه وثورته ، بعض الأصابع أو عض العصا أو صرير الأسنان ، ومثل هذا :

تركته يصرف عليك نابه (٣)

ومن طريف البغض والشماتة ما كانت تكنه نفس عمر بن الخطاب (رض) للسكران الذى جاء به الحرس بين يديه وهو مسلم قد خالف تعاليم الدين الاسلامى ، فعندما سـقط قال له :

لليدين وللفم (٤)

وقد تجنب العرب اثاة البغض والعداوة وحاولوا جهدهم الابتعاد عنها وقد وجــدت ان الملاحاة طالما أثارت الغضــب

(١ ، ٢) مجمع الأمثال ٣٨ ولاحظ السلوسى ص ١١٤ .

(٣) المصدر السابق ١٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٨ .

والعداوة حتى ورد فى الحديث الشريف أول ما نهانى ربى منه عبادة الأوثان وشرب الخمور وملاحاة الرجـال ، فقال المثل :

من لاحاك فقد عاداك (١)

لأن الملاحاة تجر الى المناقشة والفوز على المقابل • وكثيرا ما تثار النفس ويتجادل المتناقشـون وتجر الملاحاة الى أمور بعيدة من الموضوع ذاته وقد (يقشر أحدهم للآخر العصا) أو (يلبس له جلد النمر) فيكرهه من كلمة سوء ويحقد عليه من عبارة سيئة ندت بسرعة دون قصد وبنية حسنة •

البخل والكرم :

الكرم من أبرز ملامـح المجتمع العربى ، فالعربى فى الأكثر الأعم يكون كريما سخيا يجود بكل ما لديه فى سبيل المحتاج والضيف والملهوف ، وهو انعكاس لحياة المجتمع البدوى فى الصحراء ، فقد وضع الكريم فى منزلة عالية واعتبر الكرم من الفضـائل السـامية الممتدحـة ، وقد تكـون الطبيعـة الصحراوية هى التى فرضـت هذا التعاون الاقتصـادى بين أبناء البادية حتى أصبح جزءا من الأعراف والتقاليد المرعية ، فالبدوى فى صحرائه البعيدة عن العمران المتنقل فى خيامه قد تسامى انسـانيا فأغاث الجائع وسـاعد الملهوف وسـقى العطشـان لأنه قد يقع فيما وقع لهذا الانسـان فى يوم من الأيام • .

وبعكس الكرم هوجم البخـل والطمع والشره لأن ابن الصحراء يكفيه الطعام القليل والماء المحدود ، فرسم العربى

---

(١) المصدر نفسه ٢٦٨ •

صورة كريهة للشره لا يكاد يصدقها الخيال • والواقع ان الشره انسان يهاجم الكلاب على فضلات الطعام ، انها زراية وسخرية واحتقار لهذا الانسان فجاء المثل معبرا عن بخل هذا الانسان بقوله :

هو يبعث الكلاب عن مرابضها (١)

ولايكتفي العربي بمدح الكريم وذم الشره ، انما يهاجم الغني الذى لاينفع المجتمع بماله ولايستفيد من ثروته انما يحجر أمواله ويكدسها ، انها صورة أخذها العربي من حياة الصحراء ومن ابله ، فقد وجد عشبا نضرا زاهيا يجف ويذهب دون فائدة • فقال عن الغنى الذى لاينتفع الناس بماله :

عشب ولا بعير (٢)

وقد عبرت النفس الانسانية تعبيرا جميلا أخذته من الأغنام التى يستفيد الناس من صوفها فى الملبس والفراش والخيام وغيرها من الفوائد فوصفت غنى البخيل كالجزة على شاة السوء :

رب جزة على شاة سوء (٣)

وصور السخرية من البخل والبخلاء كثيرة فى الأدب العربي ولكن المثل عبر عن النفس العربية باختصار شديد ورسم صورة (كريكاتورية) هزلية ساخرة • فقد وصفت حالة البخل عند البخيل بأنه منع حتى الفآر من تذوق طعامه مع أنه يكتفى بالقليل من الطعام والتافه منه ، فقال :

---

(١) مجمع الأمثال ٢/٣٥٦ •
(٢) مجمع الأمثال ٤٧٨ •
(٣) المصدر السابق ص ٣٢٥ •

يلجم الفار فى بيته (١)

وتزداد السخرية والزراية بالغنى ذى الأموال الكثيرة الذى لا يصرف على نفسه من ماله ولو كانت هـذه الأموال كالبحر كثرة ، فقال عنه :

يصبح ظمآن وفى البحر فمه (٢)

وتفنن المثل العربى بالتنديد بالبخل ورسم لنا صورة الانسان الذى كثر ماله ولكنه لشدة جشعه وعمق طمعه يرى كل هذه الأموال الكثيرة قليلة ، فقال :

رب مكثر مستقل لما فى يديه (٣)

ولم يكن البخيل محبوبا حتى من أهله وأقـربائه لأنه انسان يقصر فى ماله عن فائدة المجتمع الذى يعيش فيـه وما أشدها مرارة على النفس أن يتحاماه أهله ويبعد عنه أقرانه فقال :

من شر ما ألقاك أهلك (٤)

ونبذ البخل ومهاجمته ظاهرة فى الأمثال العربية لتدفع العربى الى الكرم والجود وبذل المال ووصف البخل بصورة ساخرة زراية بصاحبها لان المجتمع العربى كان شديد الكرم، فمن الأمثال التى تهاجم البخل والبخيل :

يمنع دره ودر غيره (٥)

ما تبل احدى يديه الأخرى (٦)

---

(١) المصدر السابق ص ٢/٣٩٤ .
(٢) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٣٨٦ .
(٣) المصدر السابق ٣٠٩ .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٣٩ .
(٥) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٣٨٢ .
(٦) المصدر نفسه ص ٢٢٠ .

اذا قلت له زن طاطأ رأسه وحزن (١)

لايبض حجره (٢)

ولو تعلل البخيل بالاعسار فلن يصدقه المثل ، فقال عنه :

قبل البكاء كان وجهك عابسا (٣)

ان الكرم معناه أن تغلب غريزة العطاء الانسانية على غريزة البخل الأنانية الفردية لآن أصحاب النزعات الفردية لايهمهم مايقاسيه المجتمع من شقاء وألم ، وقد رأى البخيل المصلحة فى اشباع رغبته فى الجمع لأن ذلك يسعده أكثر من مقالة الحمد وعبارة الثناء فقد رغب عن اثبات ذاته اجتماعيا ورغب فى اسعاد ذاته بالمال ، فقال :

لايكسب الحمد فتى شحيح (٤)

وقد رغب المجتمع البدوى بالكرم لأن من يجود بالمال لابد أن يحتاج يوما الى الآخرين ، فقد ينقطع فى سفره عن أهله وأسرته أو يصاب بكارثة تذهب بماله ، فقال :

أحسن وأنت معان (٥)

والتأكيد على الكرم فى العادات العربية حماية اجتماعية لكل العرب فى البوادى لأن الصحراء فرضت هذه العادة الممدوحة وأصبحت من مقومات المجتمع العربى ولم تتغير الا بعد أن شابتها موازين الحضارة الجديدة وغيرت كثيرا من العادات العربية السامية وحلت مؤسسات جديدة تنوب عنها

---

(١) الميدانى ص ٦٥ .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٩ .
(٣) مجمع الأمثال ج ٢/٣٩
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٩
(٥) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

فى اطعام المسافر واشباع الجائع وارواء العطشان كالفنادق والمطاعم ولكن بقيت الشراهة فى الطعام وأثرها فى الأمثال العربية ، فقد قيل عن الشره والطماع الذى لايرضى بالكسب من ناحية واحدة :

أراد أن ياكل بيدين (١)

ويضرب المثل بالبخيل الذى يطلب أنواع الأطعمة لنفسه ويمنعها عن غيره :

يشتهى ويجيع (٢)

والغنى والفقر والرى والشبع والجوع ظواهر اجتماعية عند كل الأمم ولكنها تبرز أكثر فى الصحراء الجرداء لأن العربى فى الصحراء يكافح من أجل الحصول على القيمة ويتتبع منازل الخصب ويعيش على ماتدره الطبيعة عليه ليدفع عنه غائلة الجوع والعطش • واذا ضل فى الصحراء ولم يجد المسعف فسوف يموت ويهلك • لذلك فالغنى هو صاحب الكلمة العليا لانه يملك الطعام والشراب ويستأثر بأحسنه وأطيبه فأخذ العربى يضرب المثل بحاجة الفقير الى الغنى ويصف مقدار الحاجة الى عطائه بالمثل التالى :

اذا شبعت الدقيقة لحست الجليلة (٣)

وأشهر الأطعمة وأحسنها الحليب فهو غذاء البدوى وشرابه ومتى كثرت الألبان ودرت النوق يزداد الشبع ويكثر الغنى • ومتى حافظ الغنى على أمواله وخزنها قال المثل :

صرى واحلبى (٤)

(١) المصدر السابق ص ٣٠٢ •

(٢) مجمع الأمثال الميدانى ٣٨٤/٢ •

(٣) الدقيقة : الأغنام وهى لا تحتاج الى طعام كثير كالجليلة (الابل). المصدر السابق ص ١٧٠ •

(٤) شدى الضرع بالصرار • يلاحظ مجمع الأمثال ص ٤١٥ •

ويزداد الخير بكثرة الأمطار وانتشار الكلأ الذى ترعى عليه الابل والأغنام فيعود على صاحبها الغنى باليسر فينسيه غيره الذى لم تمطر له السماء وتنبت له الزرع ، فعبر البدوى عن الغنى الذى لايدرى بحال المحتاج بقوله :

يحسب الممطور ان كلا مطر (١)

وفى الصحراء التى يقل فيها الزرع والنبات يرضى الانسان بالقليل من الطعام وبادنى حد منه ، بل أسوأ أنواعه وقد يقنع ، عندما يفصد الدم ويشوى له ويطبخ ليطعم هذا الانسان قال المثل عنه :

لم يحرم من فصد له (٢)

وفى القناعة باليسير عن الكثير قوله :

أرض من العشب بالخوصة (٣)

والعربى أبى النفس تدعوه الكبرياء الى كتمان حاجته وعدم التصريح بفاقته للآخرين حتى لايحتقر ويفتضح فقره وقد يكون أقل منزلة فى مجتمعه من غيره لاحساسه بأن الذى يتفضل عليه بالكرم أعلى منزلة وأرفع مقاما ، فرأى فى العطش الشديد وفى الصبر على الشدة واللأواء خيرا من أن يرتوى بمنة رغم الحاجة الشديدة للرى حفاظا على كبريائه واثبات ذاته ، قال :

ظما قامح خير من رى فاضح (٤)

---

(١) الميدانى ج ٢ ص ٣٨١ .
(٢) السدوسى ص ١٧ .
(٣) الميدانى ص ٣١٧ .
(٤) الميدانى ٤٥٩ .

انه استعلاء وتسام لانسان تغلب حتى على غريزة حب الذات والحياة .

الكبرياء والظلم :

فى الصحراء المترامية الأطراف ، حيث تنازع البقاء وحيث الطبيعة القاسية الجافية لن يقدر على العيش فيها الا القوى الأيد ولا مكان فى الصدر الا للشجاع البطل الجسور . وحالات النفس الانسانية تختلف باختلاف مايلاقيه الانسان من انتصارات وسطوة واتساع نفوذه وسلطانه أو اخفاقه وخسارته . فاذا ماانتصر وسيطر فقد تزدهى نفسه وتخامرها الخيلاء وتداعبها امارات الكبرياء والاستعلاء . وفى الطبيعة البدوية الواضحة والمساواة فى العشيرة وجدنا العربى يكره مظاهر الاستعلاء وأشكال التكبر ، فضربت الأمثلة المتعددة للتعبير عن الكراهية منها :

الكبر قائد البغض (١)

ثمرة العجب المقت (٢)

بالأرض ولدتك أمك (٣)

ليس هذا بعشك فادرجى (٤)

أنا ابن جلا (٥)

ومن الأمثلة اللاذعة القاسية ماقاله المولدون :

كان الشمس تطلع من حرامه .

---

(١) مجمع الأمثال الميدانى ج ٢ ص ١٢١ .
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٢ .
(٣) المصدر السابق ١١٤ .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٣٠ .
(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٣٢ .

وقد اختلفت الأمثلة باختلاف ظروفها ولمن قيلت وفيها القاسي العنيف والناصح الرقيق والكناية اللطيفة ، ورغم قساوة الطبيعة في البادية تظهر البساطة على النفس العربية فاذا اختلت الأمور في الحياة الاجتماعية وبرز فيها انسان بعد أن كان في أواخر الصف الاجتماعي يعبر المثل عن هذه الحالة النفسية بقوله :

كان سندانا فصار مطرقة (١)

وان البغاث بأرضنا يستنسر (٢)

فقد أخذ المثل (ان البغاث بأرضنا يستنسر) من صغار الطير التي تظن أنها أصبحت ذات أهمية بين الطيور وتريد أن تكون كالنسور ، وهذا من استحالة الأمور ، اذ لابد لمن يود في المجتمع البدوي السيادة والقوة أن تكون له صفات عالية كالكرم وسمو الأخلاق وغير ذلك من السجايا التي تفرضها تقاليد الحياة العامة وحماية الضعيف ونصرة المظلوم . وخير مثال لنا (حلف الفضول) الذي نصر الضعيف الذي لا سند له ، لأن الفروسية أن تحارب من هو يقوتك وتبتعد عن ظلم الضعيف الأعزل الذي لا حول له ولا قوة ، وقد ضرب المثل بالذي يعتدي على الضعيف كالبازي الذي يقطع بمخالبه الطير الأعزل ، فقال :

مخالب تنسر جلد الأعزل (٣)

والضعيف الذي يجد من يذود عنه ويحميه من سطوة الظالمين لابد أن يقابل صاحبه بالطاعة والخضوع ، فقال المثل :

---

(١) مجمع الأمثال ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) لاحظ الميداني ج ١ ص ١٢ .

(٣) النسر نتف اللحم بالمنقار . الميداني الجزء الثاني ص ٢٧٤ .

جرني وانا حصير (١)

.. ورغم العادات والتقاليد الكريمة في حماية الضعيف فقد وجد العربي أن الظلم طبيعة في الناس وانه عادة متأصلة بين البشر ، فقال :

الناس شجر بغي (٢)

انها نظرة أسف وألم ان تجعل البشر كلهم كالشجرة التي تنبت البغي وتترعرع عليه وتنمو فيأحضانها وفي المجتمعات المتأخرة . وفي أوقات الفوضى لا مكان الا للقوي والظالم ، لذلك وجدنا المتنبي يقول :

(والظلم من شيم النفـوس فان
تجـد ذا عفـة فلعلة لايظلم)

ولا تخلو الحياة من الحق والعدل والقسط بين الناس وقد وجدنا من قام بوجه الظالمين وحارب المعتدين وقد كثرت عند العرب كلمة الظلم ووصف الظالم بصفات متنوعة ولم يجد البدوي في الصحراء أكثر من الذئب مشـاركة له في ماله ومنازعته الحياة من أجل البقاء فرآه ظـالما فعبر عن نفسه بأمثال منها :

أظلم من ذئب
ومن استرعى الذئب ظلم
وكافاه مكافاة الذئب (٣)

ولايعيش في الصحراء غير القوي الذي يحارب الطبيعة ويثبت أمام الغزوات التي تشن على قبيلته ومن لايدافع عن حرمته يصبح مهانا محتقرا :

---

(١) رسالة الأمثال البغدادية مثل رقم ١٨٣ .
(٢) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٣٠٧ .
(٣) مجمع الأمثال ص ٤٦٢ .

ومن لم يذد عن حوضه يهدم

ومن يكن ضعيفا لا قوة له فليس له الا الصراخ والشكوى وطلب النجدة من الأقوياء لمساعدته فى ضعفه وخوره ، وقد قال المثل عنه :

لو ترك الحرباء ما صل (١)

وأبت النفس العربية سيطرة الظلم والاستبداد وأحبت الحرية والمساواة ولا تريد سيدا ومسودا فى الجزيرة لأن الظالم اليوم لابد أن يكون مظلوما غدا وسيعود ظلمه عليه ومن الأمثلة المعبرة :

الظلم مرتعه وخيم (٢)

ووقع الكلب على الذئب (٣)

ولاتجن من الشوك العنب (٤)

ومن يرض بالظلم ويسخر للغير ويرضى بالذلة والخضوع والاستسلام يكن مدعاة سخرية وزراية :

هو أهون عليه من طلبه (٥)

أهون مظلوم سقاء مروب (٦)

الجبن والخضوع والخوف :

فى مجتمع يقابل الانسان فيه الطبيعة وجها لوجه

---

(١) الحرباء مسمار الدرع . ومثلها كل حرباء اذا كره صل . الميدانى ٢/١٠٠ و ص ١٤٩ .

(٢) مجمع الأمثال ص ٤٥٩ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٠ و ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٥) الميدانى ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٦) المصدر السابق ص ٣٧٠ .

بسلاحه البدائى وتهاجمه الحيوانات الضارية بغتة ويجوب المفاوز المهلكة والصحارى القاتلة لا يدرى أين يكمن عدوه ٠ وفي غموض الكون بالقياس الى تجاربه المحدودة يكون يقظا خائفا وقد وجد الليل ستارا يحجب عنه الرؤية ويحول دون معرفة من تسربل به فاستراب منه وخاف الظلمة والليل ، والخوف غريزة طبيعية للمحافظة على الحياة ٠ ومن يقــدر على كبت خوفه والسيطرة على فزعه فهذا هو الشجاع الذى امتدحه العرب ، وقد كثرت الأمثال في تمجيد الشــجاعة والبطولة وعدم الخوف كما كثرت الأمثال في وصف الخــائف ووصف انفعالات الخوف التى تظهر عليه والتعبيرات التى ترتسم على وجهه كرد فعل لما يقاسيه فى داخل نفسه ٠ ولسنا بصدد اثبات أن الخوف غريزة انما سأتبع التعبير النفسى الذى يصف فيه الخائف المضطرب ومايبدو على جسمه من اضطراب من شدة الهلع والخوف وما يداخل قلبه من رجفــة دقات قلبه المتسارعة المرتفعة قالت الأمثال :

جاء ترتعــد فرائصه

يفــزع من ظله

قلبى من الفزع فى قارورة

طارت عصافير راسه

فلم يترك العربى مظهرا من مظاهر الخــوف الا ذكره ٠ وأطرفها الأخير الذى تخيل آن العصــافير واقفة على رآســه وانتفض الخائف كالغصن حركته الريح خوفا فهلعت العصافير وطارت ٠

ووصفت الأمثال الحالات النفسية التى تعترى الخائف ٠

فقد يعقد الخوف لسانه ولايسيطر على نفسه وتصرفاته ويطيش عقله ويتبلد ذهنه -

من بعد قلبه لم يقرب لسانه ولا يده

لن يجد فى السماء مصعدا وفى الأرض مقعدا

وفى الخوف والهلع لايعود الانسان الى طبعه وهدوئه الا إذا ذهب عنه الخوف وخرج الجزع من قلبه فيرتاح قلبه ، فشبه المثل العربى الخوف بالبيضة التى يبيضها الطائر فقال :

قد أفرخ روعه

أفرخ القوم بيضتهم

ولم يقف التعبير النفسى عند وصف ارتعاد الفرائص والأعضاء التى تهتز خوفا انما بالغ العرب فى وصف مشاعر الخوف وعمقها فى نفس الخائف وعندما ضربوا المثل بشدة هذا الخوف ، قالوا :

اقشعرت منه الذوائب

واقشعرت منه الدوائر (١)

أما البطل الشجاع الذى لايخاف ولاترهبه الرعود أو الأصوات المفاجئة وغيرها من مثيرات الخوف فقد وصف بأنه انسان لايكترث بشىء ولايهتز من صوت ، فقال المثل :

---

(١) الدوائر : جمع دائرة حيث اجتماع الشعر من منبت الفرس وصدره - مجمع الأمثال ٥٤/٢ -

مايقعقع له بالشنان (١)

وقد امتدح العرب الثابت الجنان الذى لايرهب الليل وظلمته على الرغم ممـا فى دياجيـه من أخطـار الأعـداء والحيوانات المفترسة لأن حجب الظلام تمنع الرؤية الواضحة فيخاف الانسان من المجهول • فاذا ثبت ومنع نفسه من الفرار والخوف قال المثل عنه :

انه لرابط الجاش على الاغباش (٢)

ولن يكون الانسان رابط الجأش شجاعا الا اذا عاش فى مجتمع يحترم ذاته ويقدر رأيه ويساويه مع غيره من أفراد المجتمع • وفى المجتمعات المتأخرة تضيع الحرية الفردية وتبرز سلطة المستعمر على حساب حـرية الشـعب ويكون المجتمع البشرى فى أكثر حالاته خائفا مترددا وجلا وتسوء أخـلاق الفـرد ويميـل الى الخشـونة واللامبـالاة لأن السـلطات الاستعمارية مهما كان أسلوبها لن تعطى الشعب حـريته فى التعبير فستتولد فيه أمـور غير طبيعية (من سـوء السلوك كالعراك والخشونة بين كل فرد وآخر والاهمال فى العمل وفى استعمال الأدوات والتراخى وعدم وجود الميل والفوضى العامة) (٣) وهذا لا يطور أمة ويرفعها فى معارج الحضارة ، إنما ينتشر الخضوع والذل والنفاق بين الشعب •

الخضوع والذل والنفاق :

أما الشـعب الذى احترمت ذاتيته وصينت كـرامته ،

(١) القعقعة : تحريك مادة صلبة لاخراج صوت ، وكانت العرب تحرك الشنان (القرب) القديمة لتفزع الابل وتدفعها الى المسير • الميدانى ٢/٢١٥ •

(٢) الجاش : القلب وهو يضطرب عند الخوف ، الاغباش الظلام • مجمع الأمثال ص ٥٦ •

(٣) ميادين علم النفس تاليف جيلفورد ترجم باشراف يوسف مراد ...

وسمع رأيه فسوف يكون شعبا قويا صريحا واثقا من نفسه ولن يكون كذابا أو متزلفا للسلطة المستعمرة لأنه قوى الشخصية اعتز بمنزلته الاجتماعية وتمكن من مقاومة الظلم والطغيان ولا يخاف عقابا أو يرهب منسطوة المستعمر • ومتى ضاعت هذه الشخصية وخسر معركته مع المستعمر فسوف يكون شعبا خاضعا هينا يستسلم بسهولة لكل قائد يقوده كالقطيع الذى لايفكر الا بسلامته وآمنه فتظهر الزلفى والقلق والحيرة ومداراة الحاكم والنفاق فى الحياة العامة ، وخير تعبير عن النفس العربية من خوفها ونفاقها الأمثال التالية :

اذا تكلمت بليل فاخفض (١)

واذا تكلمت نهاراً فانفض (٢)

ومثله : اسجد لقرد السوء فى زمانه (٣)

ومنها : سبح يغتروا (٤)

ان للحيطان آذانا (٥)

أمثال عبرت أصدق تعبير عن الريبة من الناس والخوف من الجواسيس والتقرب الى السلطان بما يسره ويفرحه والابتعاد عما يغضبه ويزعجه وسرت مظاهر النفاق والمداجاة فى فترة من الزمن وأصبحت جزءا من حياة المجتمع بعد أن كان النفاق محاربا من التقاليد العربية والعادات الأصيلة ، فقال المثل :

(١ ، ٢) مجمع الأمثال ج ١/٦٤ ، وهما مثال واحد •

(٣) الطالقانى مثل رقم ٩٠ •

(٤) مجمع الأمثال ص ٣٥٥ •

(٥) المصدر نفسه ص ٩٠ - وهو مولد •

اذا دخلت قرية فاحلف بالهها (١)

ولم تغب ظاهرة النفاق بعد أن تحضر العرب عن المثل العربي المولد فوصف صاحبها بالذل والهوان وخرجت كلمة النفاق من مدلولها الديني الى المدلول الاجتماعي فقال :

نفاق المرء من ذله (٢)

يهب مع كل ريح ويسعى مع كل قوم
ويلدرج فى كل وكر (٣)

يسقى من يد كل كاس (٤)

انه تبدل فى المثل العربية التى تربت على الصدق والصراحة ورفض الباطل ومحاربة الظالم بعد أن استبد المستعمر والتذ بالسيطرة واذلال روح الشعب التى نافقت فسبحت بحمده وأكثرت من الثناء بالباطل على أعماله وتصرفاته وليس هذا سبيل تربية الشعوب واعدادها الصحيح .

الغضب :

بدأنا بالحب ورقته ولطفه ونختتم هذه الجولة بالغضب ، لأنه غريزة تبرز الانسان بصورته الوحشية الأولى فالغاضب تتغير تصرفاته وتتبدل طبائعه لأن رغبة من رغباته أو هدفا من أهدافه لم يحققها وهو يحس بأن هذه الرغبة أو هذا الهدف من حقه وبذلك تطور الغضب أو تبدل . فقد كان باعثه الأول الدفاع عن النفس واثبات الذات والتنازع على

---

(١) المصدر السابق ص ٩١ . وهو مولد .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٠ .
(٣) المصدر السابق ٣٩٣ .
(٤) المصدر نفسه ٣٦١ .

البقاء بصورها البدائية التي حولتها الحضارة الى المثل والتقاليد والعادات • فيغضب الانسان عندما يؤذى في عقيدته ويثور اذا أحس بأن مبدأه امتهن وتظهر على الغاضب المعاصر العلامات التي كانت قد ظهرت على أجداده من آلاف السنين وتتجسم على محياه الكراهية والحقد وتتغير ملامح وجهه وطريقة تعبيره وأسلوب معاملته للآخرين • وقد يتحول الغضب الى البطش والايذاء اذا أمن الغاضب من العقاب ووجد في المغضوب عليه الضعف • أما اذا كان المقابل قويا أشرس منه وأكثر سطوة وأشد مراسا فسوف يتحول الغضب الى ثورة مكبوتة وسوف يكظم الغضب ويكون رد الفعل في نفس الغاضب عميقا ، وتهتاج أعصابه وتستعد عضلاته للقتال وقد يفقد السيطرة على النفس ويظهر انسانا آخر ويصبح كالديك المتوتر العرف الهائج الجسم • وقد صور المثل هذا الانسان بصور متعددة منها :

وجاء نافشا عفريته (١)

وجاء فلان كالحريق المشعل (٢)

ثار ثائره (٣)

غضبه على طرف أنفه (٤)

والقوى الذى يتحدى الغاضب ويكسر شوكته قال عنه المثل العربى :

ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا (٥)

---

(١) مجمع الأمثال ص ١٨٣ •
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٣ •
(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ •
(٤) رسالة الأمثال البغدادية رقم ٣٢٨ •
(٥) مجمع الأمثال ص ٣٢ •

لافشنك فش الوطب (١)

اذا كان علماء النفس قد سربوا غضب الغاضب بطرقهم الحديثة عندما حولوه الى عـادة مفيدة فقد عالج العـرب الغضب بالنوم ، فما على الغاضب الا النوم ليرتاح ويتخلص من غضبه :

النوم فرخ الغضب (٢)

أو أن يعامل الغاضب بأسلوب جميل واهـداء مايسره ويزيل غضبه • فان كان محتاجا مدت له يد المساعدة أو كان جائعا سد جوعه • فقد نزل رجل من العرب بقوم وكان غاضبا عليهم ثائرا لأمر صدر منهم فما أسرع ماعرفوا جوعه فسقوه لبنا فسكن غضبه فقال المثل :

ان الرثية تفثا الغضب (٣)

وعندما يهدأ الانسان تنبسط أساريره ويعود شـخصا هادئا ، فقال المثل :

تحللت عقـده

جاء يتخرم زنده (٤)

وجميع الغرائز الانسانية الحيوانية التى غطتها الحضارة وغلفتها العادات والتقاليد تتجه نحو الدمار والفسـاد اذا سارت مسارها الحيوانى ولم يسيطر العقل عليها ولم تصقلها قوة الارادة • أما اذا هذبت واتجهت نحـو الخـير سـمت وارتفعت فأصبحت أداة اصلاح وبناء ، وقد هـذب العرب

---

(١) المصدر السابق • الجزء الثانى ص ٣٠٣ •

(٢) المصدر نفسه ٢٥٠ • لفش بالوطب أخرج منه الهواء •

(٣) الرثية : اللبن الحامض يخلط بالحلو • والفثء : التسكين • الميدانى ص ١٢ •

(٤) تخرم : تسكن • مجمع الأمثال ص ١٨٦ •

غريزة الغضب وسلكوا بها ملك البناء وانتفع بها الانسان وأفادته التجارب عندما رأى أن عاقبة الحقد والانتقام والشر قد تعود عليه بالشر والأذى ، ورأى فى حلاوة الصفح وجمال العفو ما يرضى الناس ويرفع قدره وينال به الثناء والتقدير ٠ فقد حدثنا عن رجل من قريش كان يريد الانتقام من شخص آذاه وأن يأخذ بثأره منه ولما ظفر به وأصبح بين يديه خاضعا ذليلا سمت نفسه عن الانتقام وأخذ الثأر وقال :

ان المقدرة تذهب الحفيظة

ومثله : ظفرى بمثلك هزيمة

ان التعبير عن النفس فى الأمثــال العربية يحتــاج الى دراسة مطولة والى تحليل أعمق ودراسة أوسع لأن العــامل النفسى أصدق المؤثرات ٠ والأمثال العربية خير سجل وأصدقه لحياة العربى ونفسه ومشاعره ، ففيها صور حياته وتجاربه ورغباته وحياته الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية والفكرية وعسانى أثرت فى هذا القول رغبة الباحثين والدارسين ٠

مصادر البحث :

١ ــ الأمثال العربية القديمة ٠
رودلف زلهايم ترجمة د٠ رمضان عبد التواب

٢ ــ أمثال العوام فى الأندلس ٠ تحقيق محمد بن شريفة

٣ ــ رسالة الأمثال البغدادية ٠ على بن فضل الطالقانى

٤ ــ كتاب الأمثال للسدوسى ٠
تحقيق الدكتور محمد الضبيب

٥ ــ مجمع الأمثال ٠ الميدانى

٦ ـ دراسات فى علم النفس الأدبى ٠
د٠ حامد عبد القادر

٧ ـ علم النفس للمجتمع ٠ د٠ عزيز فريد

٨ ـ مرضى النفس فى تطرفهم واعتدالهم ٠
د٠ محمد فرغلى فراج

٩ ـ ميادين علم النفس جيلفورد ترجم باشراف : د٠ يوسف مــراد

★★★

الفصل التاسع

التراث الجيد

فصل التراث من الموروث

ابتعاد الجيل المعاصر عن تراثه أضاع شخصيته بين تيارين ـ اغلاق باب الاجتهاد الدينى أشاخ الفكر وأخضع المجتمع للطاعة الفردية

فى مواجهة التغيرات الحادة ، تجد الأمم انه لا محيد لها عن اعادة رؤية تراثها وهل تكرره ؟ هل تتجاهله ؟ هل تنتقى منه ؟ هل يمكن ان يقوم بدور نافع فى عمليات التكيف مع الوضع الراهن ؟ هل وهل ... ؟

ومسألة التراث والجديد ـ آخذت حجمها الذى تستحقه فى التفكير العربى المعاصر ، ولم يزل الباب مفتوحا امام المزيد من ابداء الرأى ومجلة «أوراق» تفسح المجال للمفكر الأديب الدكتور يوسف عز الدين آمين عام المجمع العلمى العراقى وعميد كليتى الآداب والدراسات العليا بجامعة الامارات ، ليدلى بدلوه فقال :

الجديد والقديم والتراث والمعاصرة والمحافظة والتجديد، سمة كل عصر ، وطبيعة كل تطور فى الحياة ، ومظهر كل تبدل فى معايير الحضارات التى عمت وجه الأرض . ومعارك الفكر ومتناقضات المجتمع الكثيرة لازمة لكل مجتمع نام ينفتح نحو التجديد ويعى تأخر حاضره ، وفى كل أمة باختلاف شعوبها وتنوع أفرادها ، لا يمكن الاستفادة من الجديد والتطور الا اذا استوعب الفكر الجديد ، وهضم

المجتمع هذا التيار المتطور بما امتلك من قاعدة صلدة من تراثه وارثه الحضارى ·

● ما فاعلية التراث ؟

ـ التراث الحضارى الجيد لكل آمة هو العامل الفعال فى تطوير حياة تلك الأمة ، الذى يمدها بالقوة المعنوية والثقة بالنفس ، ويحفظها من الذوبان والضياع والاندثار · فليس لكل ما ورثناه من تراث خلال العصور الطويلة للأمة العربية جدوى ، كذلك التراث الحضارى ليس مقصورا على المخطوطات المحفوظة فى خزائن الكتب فى المكتبات العالمية ، فليس فى هذه الكتب كل مضمون حياتنا العقلية والاجتماعية والفكرية والعلمية ، فلاشك ان هناك مؤثرات حضارية ضاعت ، وأساليب اجتماعية اندرست من جراء الغزوات الكثيرة والتأثر بالأجانب ، وان هناك عادات كثيرة انمحت ، كان المجتمع يحافظ عليها ، بعد آن ضاعت شخصية العربى وانحسر أثره الحضارى وتأثيره السياسى وتوجيهه الفكرى ، بانحسار الحضارة الاسلامية والتأثير التراثى العربى ·

فالمخطوطات العربية وحياة المجتمع المعاصر لابد من تلازمهما لأن المخطوطات حفظت جانبا من التراث ، وحفظت حياة المجتمع العربى جانبا آخر منه ، ولابد من الاستفادة الكاملة منها لأن حياة المجتمع لم تأت من فراغ فكرى ، وتقاليده الجيدة لها قواعد آخلاقية فرضتها وحفظتها القرون الطويلة وهى متلازمة مع ماورثناه وتأثرنا به بصورة لاشعورية ، وآصبحت جزءا من حياتنا المتطورة المعاصرة ·

● حظيت المخطوطات القديمة فى العصر الحديث بالعناية ، ما دور ذلك فى الاستفادة من تراثنا ؟

ـ تحقيق المخطوطات واعادة نشرها بأسلوب علمي ، وكثرة ماطبع منها سهل الاستفادة منها ، وقرأها الرواد الأوائل فتأثروا بها في أساليبهم الشعرية ، وكانت من بواعث النهضة الجديدة ، عندما غير الشعراء والكتاب أسلوبهم القديم الذى يعنى بالجناس اللفظى والتورية والجناس المقولب والمرصعات والمجاز والابتعاد عن النظم فى ضروب لفظية غريبة ، معتمدا على الايغال فى اختيار الكلمة وانتقاء العبارة والتباهى ببراعة الاستهلال والجناس المركب والمطلق والملفق والمذيل واللاصق والتام والمصحف والمحرف والهزل الذى يراد به الجد ، والمقابلة والالتفات والاستدراك والتوشيح والتفويض والمناقضة وغير ذلك مما كثرت فيه المصطلحات وندرت فيه المعانى لأن الأدب والفكر بصورة عامة اهتما باللفظ أسلوبا والكلمة هدفا ٠

وكان من نتائج نشر المخطوطات المحققة بأسلوب علمى ، دخول رواء حديث وماء صاف عذب ، فحلا الأسلوب ، وأشرق النظم ٠ حدث هذا عندما تأثر الأديب المعاصر بأساليب الشعر الجاهلى والأموى والعباسى ، ودرس النابغة وجريرا والمتنبى وأبا نواس ٠

● والجديد فى الحياة بماذا أثر ؟

ـ بدأت الحياة تمور بالجديد من أحداث متنوعة وظواهر متعددة دعت المفكر مضطرا الى العناية بالمعنى ليعبر عن هذه المتغيرات الحضارية الجديدة ، وليواكب التجديد الذى لم تكن حياته الهادئة توحى به ٠ وجاء الغرب فدفع الشرقى والعربى والمسلم الى رؤية جديدة ومنظور حديث ، عندما قارن المفكر حياته وحاله وأدبه وعلمه بما عند الغرب ، وقارن ضعفه وهزال فكره الأدبى وضعف قابلية هذا الأدب على القدرة فى

وصف المستجدات الحضارية فاهتزت مثله وتغيرت نظرته ، الى أدبه ٠

● ولكن في أى أرض تضرب جذور التجديد في الأدب والفكر عندنا ؟

ـ التجديد والبعث والنهضة على اختلاف الرؤية الفكرية والتاريخية للأدب العربي الحديث ، استمد جذوره من تراث العرب القديم بمختلف عصوره الزاهية ، بما فيه من غزراة عملية وفكر عميق وفلسفة ناضجة ونظريات في الاجتماع والفلك والطب ، وأسس نظرية تطبيقية في مختلف العلوم والفنون ٠

بينما كانت مسارب الفكر الغربي وتجديده الأدبي والفلسفي قائمة على أدب أمة أخرى ، وعلى تراث شعوب مجاورة ، فقد حدثت النهضة الأدبية في آوروبا بعد سقوط بيزنطة وهجرة العلماء الى الغرب ومعهم المخطوطات التي قلدها شعراؤهم تقليداً بعث الجديد في نشر الكلاسيكية التي أفضت الى تقليد أعمى أجوف ٠

● هل تأخذ بالتراث كله أم تختار ؟

ـ احتشدت العصور التاريخية بأنواع شتى من الآراء والأفكار احتكاكا بالأمم الأخرى ترجمة ونقلا منها ، اضافة الى مافي تراثنا من أصالة وغرابة ومن حسن وسيىء ، يصعب فصله وغربلته ، فاختلطت الفلسفات الأجنبية والأفكار الغربية وتيارات الحضارت المتباينة في تراثنا ، وأصبح من الصعوبة فصل التراث الأصيل من الموروث القديم كله لأن الاختيار بحاجة الى جهد متواصل وصبر وتأن كبيرين وان يكون المختار حياديا له اختصاص بما يختار منه واضعانصب

عينيه ما يلائم العصر الحديث من هذا التراث ، سائرا وفق أسلوب علمي واضح ومنهج مخطط دقيق يلتزم به ، ليتخلص من فضول لا يناسب المعاصرة ، ولا يخدم حضارتنا الحديثة ٠ على أن تشمل هذه الحركة مختلف الآداب والفنون والعلوم والفلسفة والرياضيات لترسخ الثقة بالنفس ، وترسم صورة صادقة للعربي المعاصر ، وبخاصة الشباب ٠ ولا تقتصر هذه الحركة على فرد واحد ، ولا بد ان يكون المساهم في عملية الغربلة هذه ملما ألى جانب أختصاصه بتطورات الحياة المعاصرة ، ومعرفة واسعة بآثر حضارة الغرب ، ليلائم بين ما يختار هو وما يختار أصحابه

● كيف ترون العلاقة بين الجيد المختار من التراث ، وبين المعاصرة ؟

ـ ان عملية التقويم والتقييم عملية حضارية متطورة متسمة الرقعة ، ومتى كان التراث المختار جديدا وجيدا فسوف يدفع الحداثة والمعاصرة نحو التطور ، وسوف يلف حوله أولئك الذين يرون في التراث مادة قديمة يجب أن تترك في زوايا الاهمال ، وأن ينمي الذوق المعاصر ويفيده، ويمتع الذوق العام والحس الفني الحديث ٠

ان التخريب الفكري والتلوث الأدبي الذى ران على الأدب العربي والفكر المعاصر بحاجة الى جهد كبير بعد ان ابتعد الجيل المعاصر عن تراثه وأضاع شخصيته وضاع بين التيارين الشرقي والغربي ٠

واحياء المفيد من التراث ، وعرضه بأسلوب جديد ، وتجريده من الضعف والهزال سينظر اليه نظرة واقعية واضحة الهدف ، وتصبح للأبعاد التراثية أهمية عملية تساير

ركب الفكر العربى فى مختلف المجالات الأدبية والفنية والاجتماعية .

● احياء الجيد من التراث هدف كبير ، كيف يمكن تحقيق أقصى فائدة منه ؟

ـ لن يتم هذا الهدف الكبير الا اذا وعينا هذا التراث وفهمنا واقعه الحضارى باحصاء شامل للجيد منه والمبدع الذى برز فيه المفيد الذى يساير الحياة المعاصرة من شعر ونثر وفكر وفلسفة وفن وعلم صرف ونقد بناء فليس كل شعر امرىء القيس ولبيد وجرير والفرزدق وابى تمام والمتبنى جيدا ومفيدا ، وليس كل فكر ونثر الجاحظ وعبد الحميد الكاتب والفارابى وابن سينا يمكن الاستفادة منه وليس كل ما جاء فى كتب الطبرى والمسعودى وابن خلدون يمكن أن يتخذ نموذجا يحتذى فى البحث والكتابة .

● العمليات العقلية للمجتمعات متكاملة ومتفاعلة فى رأيكم ، هل تأثرت الحركة الفكرية والأدبية العربية فى تاريخها الطويل بغلق باب الاجتهاد الدينى ؟

ـ مما لا جدال فيه أننا ورثنا تبعة كبيرة ومخزونا حضاريا كبيرا ، سدت أمامه الأبواب فانغلق الفكر الأدبى تبعا لغلق باب الاجتهاد الدينى ، فانصرف الكتاب والمفكرون عن حركات اصلاح الشعر والأدب وعورضت الاصلاحات بشدة ، وقتل الرأى الجيد المفيد ، فشاخ فكرنا وتدهور الابداع وأدى الى مجتمع خضع للطاعة الفردية وفقد ارادته . وشتان بين مجتمع قائم على الطاعة العمياء ومجتمع قواعده الارادة الحرة والفكر المطلق الذى يحقق الحرية والابداع والتطور لأن منح الفرد حقه فى التعبير وابداء الرأى من عوامل قوة الأمة ورسوخ قواعدها الفكرية .

الفصل العاشر

النحو ودراسته

النحو ودراسته

«تعليم اللغة من مشلات العصر الحديث ، فلم تقتصر المشكلة على اللغة العربية · بل ظهرت فى عدة لغات كاللغة الانكليزية والألمانية وغيرهما من اللغات الحية لأن استمرار حياة اللغة يدعو الى تطويرها وتجديدها وبقائها نامية مزدهرة · وخير الوسائل لمعرفة الضعف حصر الأسباب التى أدت اليه لايجاد حلول ناجحة وأساليب ناجعة لرفع المستوى المنخفض عند الدارسين ، ولن يكتب للدارسين التقدم الا اذا درست نواحى الضعف فى فروع اللغة العربية الأخرى كالانشاء والخطابة والنصوص فى مراحل التعليم المختلفة» ·

وآثرت أن أدرس ضعف الدارسين فى النحو وأترك لغيرى من الباحثين دراسة الفروع الأخرى حتى يستكمل البحث جوانبه المتعددة وتطبق النتائج على اللغة العربية كلها ، فقد لاحظت الشكوى واضحة ،وألفيت طالب الدراسات العليا يبتعد عن الدراسة النحوية واللغوية ويؤثر عليها الاتجاهات الأدبية والنقدية لاحساسه بثقل مادة النحو وصعوبتها · وتستمر هذه الشكوى حتى بعد تخرج الطلاب فى كلية الآداب وتدريسهم للنحو فى المدارس الثانوية · فقد ظهر (أن النحو مصدر شكوى عامة) (١) من المدرسين ، فقد أدى الخوف من النحو الى ضجر المتعلمين فى

---

(١) مشكلات تدريس اللغة العربية ص ٥٥ ·

عصرنا وقبل عصرنا .. وانصرف فريق منهم عن تعب التحصيل ومشقة الاستيعاب ، وفر بنفسه من هذه البلبلة والفوضى ، قانعا بالقليل أو الأقل ، مؤمنا بأن مافاته ليس ذا بال» (٢) .

ولعل مصدر الصعوبة يأتي من تاريخ النحو الطويل العريض ، فقد عني في جمعه ودراسته واستخراجه من لغة العرب جمهرة من العلماء ، حاولوا تدوين شوارده ، وكثر النقاش في قضاياه . والفت الكتب في مشكلاته وقواعده ، وشرحت بعض هذه الكتب وعلق عليها ، ووضعت لبعضها الحواشي والتعليقات لأن أكثر النحاة أراد اثبات الذات الاجتماعي والذات العلمي بين المثقفين المعاصرين له فأوجد الصعوبات وخلق المشكلات وضيق على النحو حتى سمي بعلم (الاعراب) . فقد جاء في المفصل لابن يعيش : «ولقد نديني ما بالمسلمين من الأدب ، الى معرفة كلام العرب ، ومالي من الشفقة والحدب ، على أشياعي من حفدة الأدب لانشاء كتاب في الاعراب يحيط بكافة الأبواب ، مرتبا ترتيبا يبلغ بهم الأمد البعيد كما قرب السعي ويملأ اسجالهم بأهون السقي» (٣) .

وكأن النحو هو اعراب آخر الكلمات ونسى النحاة أن اللغة العربية هي حياة المجتمع ، والمجتمع لايعيش بالألفاظ المجردة انما بالمعاني والتراكيب اللغوية «كالتقديم والتأخير والذكر والحذف والنفي والتأكيد والاستفهام والطلب»(٤) وقد ظهر هذا فيما بعد في (اعجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى وفي (دلائل الاعجاز) لعبد القاهر الجرجاني الذى عنى

---

(٢) اللغة بين القديم والحديث تاليف عباس حسن ص ٧٣ .

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ص ١٧ جـ ١ .

(٤) دراسات في اللغة والنحو للدكتور حسين عون ص ٦١ وقد شرح عبد القادر ذلك في ص ٦٤ ـ ٦٥ .

بأسرار اللغة ومعانيها (٥) . وسار على الفكرة طه حسين ، فقد تصور احياء النحو يكون على وجهين : «أحدهما أن يقربه النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويسيغه ويتمثله ويجرى عليه بفكره اذا فكر ولسانه اذا تكلم وقلمه اذا كتب ، والآخر أن تشيع فيه هذه القوة التي تحبب الى النفوس درسه ومناقشة مسائله والجدال في أصوله وفروعه وتضطر الناس الى أن يعنوا به بعد أن أهملوه ويخوضوا فيه بعد أن أعرضوا عنه» (٦) .

وقد حاول أستاذنا المرحوم ابراهيم مصطفى أن يقرب النحو الى الأذهان ويسهل المهمة العلمية على الدراسين بعد أن أحس بالصعوبات التي يعانيها الدارس ، فقال : «أطمع في أن أغير منهج النحو اللغوى للغة العربية وأن أرفع عن المتعلمين أصر النحو وأبدلهم به أصولا سهلة يسيرة تقربهم من العربية وتهديهم الى حظ من الفقه بأساليبها» (٧) .

لكنه لم يقدر على انجاز وعده . وقد سألته يوماً : لماذا لاتؤلف الجزء الثاني فرد رد المتخلص لا رد المقنع : سوف أكتبه بعد أن يفهم الجزء الأول منه . وهو يرد قصور النحو وتقصيره الى علته الطبيعية وهي أن النحويين قد فلسفوا فقصروا به عن أن يذوق جمال اللغة العربية ويصور ذوقها كما ينبغي أن يصور ، وبقى النحو فترة يدرس في كتبه القديمة ويتابع الدارس الاصلاحات نفسها والجزئيات ذاتها ، حتى شعر بعض النحاة بضرورة التطور ومراعاة التبدل الحضارى الذى طرأ على العرب ، فألف الغلاييني وحفنى

---

(٥) دلائل الاعجاز طبعة المنار الثانية ص ٢٨٢ وما بعدها وابراهيم مصطفى ص ٨١ .

(٦) احياء النحو المقدمة ص - صهـ .

(٧) حاضر اللغة العربية الأنق فى ١٩٥ ، ذكر للمشاريع والمؤتمرات فى ١٩٣٢م - ١٩٥٦ .

ناصف وجماعته ، وعلى الجارم ومصطفى أمين كتبهم فى تسهيل النحو للدارسين . وعقدت مؤتمرات فى تيسير النحو فى القاهرة والشام وحلقة فى دار العلوم لخدمة هذه الفكرة ·

ولو نظرنا الى كتب النحو القديمة لوجدنا أن «خلف الأحمر» ألف كتابا لمساعدة الدارسين (٨) على فهم أصوله · ومع كل ذلك بقى النحو بعيدا عن التسهيل ، اذ أصبح غاية فى ذاته وليس وسيلة من وسائل تقديم اللسان وفهم النص العربى والتمتع بحلاوة أسلوبه وأصالة معانيه · ولعل مرد الصعوبة ، أنه لم « يتجه أحد الى القواعد نفسها ، الى طريقة وضعها ، فيسأل ، ألا يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده ، وأن يكون الدواء فى تبديل منهج البحث اللغوى للغة العربية (٩) » ·

ان اسراف النحاه فى وضع الأسماء والتأويلات ووضع الفروق والجزئيات فى النحو أصاب الدارس بالحيرة لتمسكهم بوضع قاعدة نحوية من أجل مثل واحد ، واختلاف النحاه فى الأحكام أعطى الفرصة للباحث (أن يرى الرأى فيقول وهو آمن أن هناك رأيا يناقضه من غير أن يكلف نفسه مشقة الاطلاع والجرى وراء هذا النقيض · ذلك أنه يعلم من طول ممارسته النحو والنظر فى قواعده أن الواحدة منها لاتخلو من رأيين أو آراء متعارضة ، حتى أولياته وما يجرى من مسائله مجرى البادئة العلمية (١٠)) ·

ومن دراسة جمع الجوامع والأشمونى والانصاف والمفصل وقف الدارسون أمام تبريرات النحاه وتعسفهم فى القول

(٨) مقدمة فى النحو لخلف الأحمر البصرى تحقيق للتنوخى ·
(٩) احياء النحو ص : ذ ·
(١٠) اللغة والنحو ص ٧٢ ·

وتأويلهم لبعض الأمثلة في دهشة ، ففي قوله تعالى : (ان هذان لساحران) « سورة طه الآية ٦٣ » · قد خرجت الآية الكريمة على القواعد التي وضعوها بأن اسم أن يكون منصوبا ولما صادفهم الحديث الشريف : « ان من أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » لحنوا الرواية ووقفوا حيارى أمام قوله تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) « سورة البقرة ، الآية ٦٢ » · وأخذت تأويلاتهم أساليب متنوعة لأنهم لايقدرون أن يلحنوا الرواية لهذا كثرت أبواب الاعراب في كتب التفسير للزمخشري وأبي حيان وأبي البقاء العكبري (١١) ·

ولما اختلفت الآراء وأعيت النحاة الوسيلة الى التخريج غلطوا العرب : « قال سيبويه : وأعلم أن ناسا من العرب يغلطون فيقولون انهم أجمعون ذاهبون وانك وزيد ذاهبان (١٢) » ولا أدري كيف يغلط العرب وهم يتكلمون لغتهم ولغة آبائهم ؟

ووقف النحاة أمام بيت الفرزدق في حيرة من أمرهم :

وعض زمان يا ابن مروان
لم يدع من المال الا مسحتا أو مجلف

مجلف معطوف على (مسحتا) وهما مختلفان في الاعراب، وقال الزمخشري انه : « بيت لاتزال الركب تصطك في تسوية اعرابه (١٣)» ، ومن يقرأ ماتكلف النحاة من الوجوه مثل الخليل وثعلب وأبي على الفارسي والفراء والكسائي يأسف للجهد الذي أضاعه هؤلاء العلماء وكان حريا بهم أن

---

(١١) ابراهيم مصطفى ٦٧ ·
(١٢) حاشية الصبان على الأشموني ص ٢٨٧ ·
(١٣) القواعد النحوية ص ١٨٨ والانصاف ص ٢ ·

يقولوا كما قال ابن قينية : ان رفع القافية ضرورة شعرية وينتهي كثير من الجدال ويقتصر الكثير من الورق والفكر ·
ويظهر عناؤهم وتأويلهم عندما يعربون قول معدى كرب :

أريد حياته ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

وفي عمرك الله ونحن العرب ، واياك والأسد (١٤) ، قد كان رضى الدين الاستراباذى صريحا عندما قال : (البدل تابع مقصود بما ينسب الى المتبوع وأقول وانا الى الآن لم يظهر لى فرق بين بدل الكل من الكل وبين عطف البيان ، بل لا أدرى عطف البيان ، الا البدل كما هو ظاهر من كلام سيبويه (١٥) ، فكيف أطلب من طلاب النحو أن يفرقوا بين عطف البيان والبدل ؟ اذا كان هذا النحوى الكبير لايقدر على التفريق بينهما ·

ونحن نعرف قواعد اعراب الأسماء الخمسة أو الستة ولماذا اختلف النحاة فى قول الشاعر :

أهدموا بيتك لا أبا لك   وزعموا أنك لا أخا لكا

لعدم وجود التنوين وليسا مضافين (١٦) ومن قول الشاعر :

ان أباها وأبا أباها
قد بلغا فى المجد غايتاها (١٧)

وما أكثر قول النحاة فى باب الاشتغال بالرفع والنصب

---

(١٤) ابراهيم مصطفى ٤٩ ·
(١٥) الكافية ص ٣٣٧ ·
(١٦) ابراهيم مصطفى ص ١١ ·
(١٧) الانصاف ص ١١ ، وشذور الذهب ٢٨٧ ·

وكثرة خلافهم فيه (١٨) ٠وعندما لم يجدوا الحركات واضحة قالوا ان اختفاء الحركات (اعراب على التـوهم) فهـل يفهم اعراب التوهم بسهولة ويسر لكل الدارسين (١٩) ٠

بقي النحو يدرس في كتبه القديمة التي حشيت وحشدت بمختلف الشروح ومتباين الحواشي ومتناقض الردود ، حتى جاء العصر الحديث وحاول حفني ناصف وجماعته الغلاييني وعلي الجارم ومصطفى آمين بمحاولة متطورة في دراسة النحو وتسهيل فهمه على الدارسين ليكون قريبا من الفكر المعاصر ويلائم الذوق الحديث ٠ ومع ذلك فقد وجدنا بقايا صعبة على المبتدئين عند الغلاييني ونقصا عند علي الجارم ومصطفى أمين، وقد أحســن خلف الأحمر البصرى قبلهم فكتب (مقدمة في النحو) عندما احس بالثقل الذى ألقــاه النحاة على الطــلاب وبالصعوبات التي يواجهها دارس النحو مع أن الكتاب من أول ماوضع من مختصرات ، فقد قال في المقدمة :

(ولما رأيت النحويين وأصــحاب العــربية اجمعين قد استعملوا التطويل وكثرة العلل وأغفلوا مايحتاج اليه المتعلم المتبلغ في النحو من المختصر والطرق العربية والمأخذ الذى يخف عــلى المبتدىء حفظـه ويعمــل في عقله ويحيط به فهمه (٢٠) ٠

وقد وضع الكتاب قبل أن تدخل الفلسفة في النحو فما أدرى ماسيكون موقفه اليوم بعد أن مرت هذه القرون الطويلة على النحو ؟٠

اننا بحاجة الى وضع كتــاب جــديد يســهل النحو على

---

(١٨) احياء النحو ص ١٥١ ٠

(١٩) عبد الحميد حسن ص ١٨٨ ٠

(٢٠) مقدمة في النحو خلف الأحمر البصرى ٠

الدارسين ويطور أساليب تدريسه ، مستفيدين من الاطار التاريخي العريض للنحو والامتداد الزمني الذى أثر فيه لأنهما عاملان زادا في اختلاف الرؤية وتضارب الآراء ، ويمكن للمؤلف الجديد المعاصر الاستفادة من اختلاف آراء النحاة فى الكوفة والبصرة أولا ، ثم في بغداد ثانيا ، والأمصار الأخرى ثالثا ، فان هذه الاختلافات أعطت مجالا للاختيار والانتقاء ، فقد نضجت الآراء وتوسع مجال النقاش والجدل ، فأصبح واضع كتاب النحو اليوم مطلعا على المفاهيم القديمة وطول الزمن التاريخي والعرض الفكرى المتباين ، فقد أصبحت المسافة بعيدة بين بدء كتابة سيبويه الغامضة العبارة واليوم • ولاننسى محاولات السيرافى وابن مضاء الأندلسى في العصور القديمة فى تسهيل وتطوير النحو وفى العصر الحديث مؤلفات الاساتذة ابراهيم مصطفى وأمين الخولى وعبد الحميد حسن وعباس حسن ومحاولة أحمد عبد الستار الجوارى فى العراق ، وتحتاج هذه الآراء والنظريات فى التسهيل والتطوير الى تطبيق يمكن أن يستفيد منه دارس النحو ، فمازالت لغة الطلاب فى العراق ضعيفة يعتورها اللحن رغم أن الطالب يدرس قواعد اللغة العربية من الصف الرابع الابتدائى ثم المتوسطة والثانوية ، واذا أدخلنا فى الحساب سنوات كلية الآداب تكون ثلاث عشرة سنة فى دراسة النحو •

وخير وسيلة للمؤلف الجديد أن يشعر الدارس بحلاوة لغته وتذوق جمالها والاحساس بها وهو يدرس النحو ، وبذلك تكون دراسة النحو ضمن التراكيب والتعابير التى يدرسها • أما فصل النحو عن اللغة فقد يحفظ القاعدة ولكنه لن يقدر على فهمها وتطبيقها فى لغته اليومية •

ومن تجربتي وجدت أسباب الضعف عند الطلاب متأتيا من :

١ ـ ابتعاد لغة الحديث اليومية عن قواعد اللغة العربية أدى الى عزل الفصحى • ولو كانت الصلة متينة بين الفصحى واللغة اليومية لسهل على المتعلم تعلم النحو ، لأن الطالب يتكلم ويسمع قبل أن يقرأ ويكتب ، فهو يقرأ بالفصحى في المدرسة وأحيانا في داخل الصف فقط ، وأكثر حياته يتكلم باللهجة العامية التي تستعمل حتى في تدريس النحو نفسه ، فاذا ألزم المدرس نفسه وطلابه بالتحدث بالعربية السهلة وابتعد عن اللهجة العامية أفاد نفسه وطلابه في الوقت نفسه •

٢ ـ ابتعاد بعض كتب النحو المدرسية عن معالجة المشكلات المعاصرة والقضايا الحديثة في الأمثلة والتطبيق ، لأنها تعتمد في الأمثلة على بعض الكتب البعيدة عن ذهن الطالب وحياته كالأغاني والعقد الفريد وكليلة ودمنه وكتب الجاحظ وبديع الزمان ، وهي كتب مفيدة اذا أحسن اختيار النصوص الحية التي ارتبطت بأحداث ومشكلات يدركها الدارس •

٣ ـ التبدل المستمر في مناهج دراسة النحو وادخال أمثلة لها اتجاه سياسي يلائم فكر السلطة الحاكمة خلق بلبلة فكرية وقلقا روحيا •

٤ ـ وجود مدرسين غير مزودين بالثقافة العربية الأصيلة وعدم اتقانهم النحو فقد نجح بعضهم في دروس الأدب والدروس المساعدة الأخرى ، ثم فرض عليه تدريس النحو رغم الضعف الذي لازمه منذ دراسته الأولى ، ولا أعتقد أن

بعضهم قد استفاد من طول تدريسه النحـو ، ولكن هـؤلاء يحتاجون الى تدريب عميق وفهم لأسس النحو ٠

٥ ـ طرق الامتحانات مغلوطة الأساليب لاتوضع لمعرفة قدرة الطلب فى المنهج كله والاحاطة بما استوعبه وماااستفاده من دروسه انما توضع بعض الأسئلة فى الأمـور الصـغيرة ولتعجيز الطالب واظهار مقدرة الأستاذ فى ابراز القضايا الجزئية فى النحو والأمثلة التى لايصادفها الطالب فى حياته اليومية ، ومن الضرورى آن تكون الأسئلة مستوعبة لأكثر المنهج اذا تعذر كله ٠

٦ ـ انتشار العـامية فى الاذاعـة والتليفزيون وفى قاعات التـدريس فى الكليـات والمدارس المختلفة آدى الى تسهيل التحدث بالعامية فمادام الطالب ـ وبخاصة فى دور التلقى يسمع الأغانى ويشاهد المسرحيات بالعامية ، فهـو بلاشعور يبتعد عن الفصحى ٠فعناية الاعلام بالفصحى تساعد كثيرا على بذر الألفة بين اللغـة الفصـحى والشعب وفهمها وحبها ،وقد آلفينا من لايقرآ ويكتب يفهم الأخبار والتمثيليات بالفصحى ويلتذ بمشـاهدتها ٠٠ ومعنى ذلك آن الفصـحى ليست بعيدة عن ادراك العربى مهما كانت ثقافته وعلمه ٠

من مؤلفات
الدكتور يوسف عزالدين

١ ـ الشعر العراقي في القرن التاسع عشر : خصائصه وأهدافه :
بغداد وزارة التربية ١٩٥٨ ٠
القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ٠
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ ٠

٢ ـ الشعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية :
بغداد وزارة التربية ١٩٦٠ ٠
القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ ٠
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ ٠

٣ ـ خيري الهنداوي حياته وديوان شعره :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٥ ٠
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٤ ٠

٤ ـ في الأدب العربي الحديث (بحوث ومقالات نقدية) :
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٦٧ ٠
بيروت والقاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ٠
بيروت ـ دار العلوم في الرياض ١٩٨١ ٠

٥ ـ داود باشا ونهاية المماليك في العراق :
بغداد ، دار البصري ، ١٩٦٧ ٠
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ ٠

٦ ـ مخطوطات عربية في مكتبة صوفية الوطنية :
بغداد ، المجمع العلمي العراقي ، ١٩٦٨ ٠

٧ ـ الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب العربي الحديث :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٨ ٠
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ ٠

٨ ـ شعراء العراق فى القرن العشرين (جـ ١) :
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٦٩ ·

٩ ـ الرواية فى العراق ـ تطورها وأثر الفكر فيها :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٣ ·

١٠ ـ فهمي المدرس ـ من رواد الفكر الحديث :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٩ ·
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ ·

١١ ـ القصة فى العراق ـ جذورها وتطورها :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٤ ·

١٢ ـ تطور الفكر الحديث فى العراق :
بغداد ، دار المناهل للترجمة والنشر ، ١٩٧٦ ·

١٣ ـ ابراهيم صالح شكر وبواكير النثر الحديث فى العراق :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٥ ·

١٤ ـ قلب على سفر (رواية) :
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ·

١٥ ـ مخطوطة شعر الأخرس :
بغداد ، مطبعة العانى ·

١٦ ـ النصرة فى اخبار البصرة (للأنصارى) :
بغداد ، المجمع العلمى العراقى ، ١٩٦٩ ·
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ ·

١٧ ـ فى ضمير الزمن (شعر) :
الاسكندرية ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٠ ·
القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٧٠ ·
الرياض ، دار أمية للنشر ١٩٨٥ ·

١٨ ـ الحان (شعر) :
الاسكندرية ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٣ ·
القاهرة ، دار العلم للطباعة ، ١٩٧١ ·
الرياض ، دار أمية للنشر ١٩٨٥ ·

١٩ ـ لهاث الحياة (شعر) :
بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ ·
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ·

٢٠ ـ من رحلة الحياة :
بغداد ، مطبعة أسعد ، ١٩٦٩ ٠
القاهرة ، دار الأبداع الحديث ، ١٩٨٥ ٠

٢١ ـ فصول فى الأدب الحديث والنقد :
دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨١ ٠

٢٢ ـ Modern Iraqi Poetry, Social and Political Influences.
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١ ٠

٢٣ ـ Poetry and Iraqi Society. 1900-1945.
بغداد مطبعة العانى ، ١٩٦٢ ٠

٢٤ ـ قضايا من الفكر العربى :
القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ٠

٢٥ ـ الحركة الفكرية فى العراق :
بغداد ، جامعة بغداد ـ ١٩٨٤ ٠

٢٦ ـ التحدى الحضارى والغزو الفكرى :
الرياض ، دار امية للنشر ـ ١٤٠٥ هـ ٠

٢٧ ـ تطور الشعر الحديث :
نادى جدة الأدبى ١٩٨٦ ٠

٢٨ ـ Songs from Baghdad London 1984.

٢٩ ـ التراث والمعاصرة ٠

كشاف الأعـلام

[أ]

كشاف البلدان

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٢٥٤٢


رابط بديل
lisanerab.com
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com



يوسف عزالدين

يطلب من :

- مكتبات الهيئة المصرية العامة للكتاب
- مكتبة الساقى لندن

26 West burne grove, London W.2

- مكتبة دار العلوم ـ الرياض

ص . ب ١٠٥٠

- مكتبة دار أمية للنشر

ص . ب ٤٣١٩٨ الرياض ١١٤٦٤

- مكتبة المتنبى / شارع المتنبى

بغداد ـ العراق

مطابع الهيئة المصرية العا[illegible]